فاروق شهيتش

FARUK ŠEHIĆ

التدفق الهادئ لنهر أونا

QUIET FLOWS THE UNA

مكتبة ٣٦٢

رواية

ترجمت إلى 9 لغات عالمية وصدرت في 11 بلد

EUROPEAN UNION PRIZE FOR LITERATURE
جائزة الاتحاد الأوروبي للأدب

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

التدفق الهادئ لنهر أونـا

QUIET FLOWS THE UNA

362 | مكتبة

telegram @ktabpdf
مكتبة ٣٦٢

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل البوسني
Quiet Flows the Una
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Originally published in Bosnian as Knjiga o Uni, by Buybook, Sarajevo
First published in 2016 by **Istros Books**, London, United Kingdom
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Copyright © Faruk Šehić, 2016
All rights reserved
Arabic Copyright © 2017 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

«تـم إصدار هـذا الكتاب بدعم من برنامج أضواء على حقوق النشر لمعرض أبوظبي الدولي للكتاب دون تحمل المعرض أي مسؤولية عن محتوى الكتاب».

SPOTLIGHT ON RIGHTS

الطبعة الأولى: شباط/فبراير 2018 م - 1439 هـ

ردمك 978-614-01-2470-7

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

مكتبة ٢٠١٩١٢٢٢

telegram @ktabpdf
مكتبة ٣٦٢

التدفق الهادئ لنهر أونا

QUIET FLOWS THE UNA

فاروق شهيتش

FARUK ŠEHIĆ

نقلها من البوسنية

ويل فيرث

الترجمة العربية

ماجد حامد

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

مكتبة 362

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

telegram @ktabpdf

مكتبة ٣٦٢

مكتبة
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

اللهم أنزل على قبرها الضياء والنور
والفسحة والسرور
اللهم اقبلها في عبادك الصالحين
واجعلها من ورثة جنة النعيم

النسيان أحد أوجه الذاكرة، هو الهوة السرية إنه الوجـه الآخـر للعملة.

جورج لويس بورخيس

العقل ينسى، ولكن الآثار الجسدية تحـتفظ بالنتيجـة، فالجسـد النازف متحف التاريخ.

جيفري هارتمان

المحتويات

التنويم المغناطيسي..... 9
بحارو الجيش الأخضر..... 27
جمهورية الماء..... 36
الخريف، الخيّال الآتي من الشمال..... 38
النمو مع النباتات..... 42
لا إحياء ولا موت..... 46
التقاط سمكة..... 50
أمير أونا والتنين وإعادة الإعمار..... 53
آلهة النهر..... 57
التطهير المائي..... 59
جدتي..... 62
أصل الأنواع..... 67
المعركة الأخيرة..... 71
رحلة الليل..... 75
غارغانو وإلخ..... 80
قصة غارغانو..... 82
برقية من المياه المظلمة..... 85
الليالي المضيئة..... 92
السحر الأسود..... 95
طبقات الخوف في داخلي..... 100
عام 2007 من منظور غارغانو..... 105

telegram @ktabpdf

مكتبة ٣٦٢

في مكان ما على الأرض..... 108
عام 1992 – نقطة الصفر..... 112
قوة الأفعى..... 118
إميل..... 123
القلب..... 126
الربيع..... 129
المسخة داخل مستودع العصير..... 133
أغنية الثقب الأسود..... 139
اللاجئون..... 144
الغوص في المرآة..... 147
الخيوط الخضراء..... 150
العلامة المائية..... 155
ضفة النهر في الشتاء..... 157
حب الأطلال..... 161
البقع العمياء..... 167
مرثاة توشيبا..... 176
القنطور..... 181
سميث الفادي، والمعروف باسم: مرشد الغيوم..... 184
المنزل على الضفتين..... 189
أولى كلمات الكتاب..... 194
منزل الرعب..... 203

التنويم المغناطيسي

واحد

أحياناً لا أكون نفسي، بل أكون غارغانو. ذاك الآخر هو الأنا الحقيقي؛ وليد الظل، وليد الماء، الأزرق الهشّ الذي ليست بيده حيلة. اسألني عن أي شيء تريده، إلا عن هويتي، فهذا السؤال يثير فيّ الذعر. أستطيع إخبارك عن ذاكرتي، عن عالم المادة الصلبة الذي يتبخر تدريجياً لتصبح الذاكرة آخر مقومات شخصيتي التي تبخرت كلياً. عندما أقفز إلى الماضي، أكون واعياً بالكامل بما أفعل. أردت أن أكون كتلة واحدة كسائر البشر. أشعر الآن بحال أفضل بينما أحدق إلى ذلك الخط الأبيض غير المنقطع على الطريق المعبّد؛ فهذا يريحني. يحلّ الظلام بسلام؛ فأنا لا أنظر إلى الوراء. عندها، يكون الظلام خلفي ولكنني لا أشعر به أبداً، لا أشعر به وهو يغطي الطريق أو الأبنية والأشجار. يكتفي بالمشي ورائي طوال الطريق، ولا يجرؤ على الاقتراب مني لأنه يعرف أنني سأستخدم درعي المصنوعة من لائحة من الكلمات النورانية، وبالتالي سيذهب كلّ شيء سدًى. وما من أحد يريد لهذا أن يحدث. لا غارغانو ولا الظلام ولا حتى ذلك الأنا الآخر؛ رائد الفضاء، المغامر ومستكشف البحار والمحيطات.

ذكرياتي قبيحة وتفوح منها رائحة نتنة. أشعر بالقرف عندما يتعيّن عليّ التحدث ووصف الوضع في يوغوسلافيا في بداية الحرب.

لا أريد التحدث عن فتيان المدارس الذين كانوا يشحنون رئاتهم بروائح البول في غرف تبديل الملابس قبل بدء حصة الرياضة المدرسية. عندما أتذكر بناء المدرسة، يتصبب مني عرق بارد – لا، لم يصل الأمر وأن أصبت بنوبة قلبية – ذكريات تلك الأيام هي التي تجعل جسدي يفرز العرق البارد. أتذكر كيف كنت أُحشر في سترتي الضيقة التي من شدة ضيقها أصبحت عندما كبرت ممن يعانون من رهاب الأماكن الضيقة. أتذكر دورات المياه التي بالرغم من قذارتها – التي كنا نصاب بالدوار بسبب جوها العابق بأعلى درجات تركيز الأمونيا – إلا أنها شكّلت ملاذنا شبه الآمن من نظام القسوة المدرسي؛ تلك القسوة التي برع فيها الأساتذة ليصح القول فيهم إنهم بلغوا فيها درجة الأستذة. لم تكن القسوة صفة خاصة بالأساتذة، بل انتقلت إلى البناء بحد ذاته بما يشبه التماهي بين البشر والحجر؛ فقد كانت الأروقة المطلية باللون الرمادي أقرب إلى الزنازين منه للأروقة المدرسية، أما ألواح الكتابة السوداء المائلة إلى الرمادي بفعل بقايا الطبشور المزال بالماء والإسفنج، فقد أوحت لنا بعصور الظلمة لا بعصور العلم والنور.

طافت أعقاب السجائر والواقيات الذكرية في دورات المياه. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة للاعتراض على تلك المنشأة البالية. توجب علينا جميعاً ارتداء معاطف زرقاء متطابقة. وكانت رائحة الهواء في الأروقة كرائحة شطائر مُعدة من أرخص أنواع شرائح لحم السلامي. (التي تُدعى أيضاً *الباريسية*) بالنظر إلى تصميمها المعماري، كان يمكن للمدرسة، أن تتحول مباشرة إلى ملجأ في حالة الحرب، لأنها كانت مليئة بالنوافذ الصغيرة التي كنا، نحن الجنود البسطاء، نُظهر

بنادقنا الخشبية منها ووجوهنا الشجاعة المتسخة، لقذف الحجارة مُقاومين الأعداد الهائلة للعدو الغادر، بينما ننشد أغانٍ وطنية أثناء هدوء المعركة.

لقد كانت الأرضيات الخشبية البالية في المساكن التي يعود زمن بنائها إلى أيام الإمبراطورية النمساوية المجرية، نتنة بفعل البراز والبول وأمراض المستأجرين، الذين كانوا من طبقة البروليتاريا الرثة في بلدتي، بوسانسكا كروبا. في أحد تلك المساكن استلقت ستريبوروفا على الطاولة، وباعدت فخذيها الريانان، الأبيضان بياض الثلج، فتدلى شعرها الحريري الأسود الطويل المربوط. ظهر عرق ثخين، بحجم إصبع، عند عنقها. أومض الضوء في سقف الغرفة العالي، فاضطر من كان نظهره ضعيفاً أن يقترب كي يشاهد بوضوح. عندما أهّت عرضها، جمعت المال ورفعت سروالها التحتي الأبيض الطويل وأسدلت تنورتها القصيرة ثم عادت لسكب المشروب للمشاهدين العطشى. لو أن لأولئك المتفرجون، سكّيري المشروب الرخيص الذين تفوح منهم رائحة السجائر، أن يقرأوا كتباً باللغة اللاتينية، لكانوا علموا أنهم كانوا يحدقون إلى *speculum mundi*، أي مرآة العالم.

الذكريات قبيحة لدرجة أنها توقف نفسها بنفسها. كل شيء أتذكره يجعلني غير راغب بمتابعة سرد القصة. أرى روث حصان يتبخر على طريق تيتو المُعبّد. أسمع وقع حوافر الحصان المتواتر الكئيب الذي يثير أعصابي. ويتساقط المطر لأيام بإيقاع يشبه تواتر حوافر الحصان. أعلم أنني أستطيع كبت الشعور بالغثيان،

وأن أرى كل شيء ملون بألوان زاهية لكنني سأشعر حينها بأنني أخون أمنيتي لأجل رؤية متصلبة عن الماضي. ينبثق تابوت بنافذة زجاجية من ذاكرتي: يزحف منه أستاذ الفنون نحوي ويضع نظارة ذات إطار أسود، وكأن ذلك الإطار الأسود قد صغّر حجم وجهه ليتسع لصورة في لائحة الوفيات في الجرائد قبل أن يُقتل بسنين عديدة.

أتذكر الجنازات اللامنتهية وأبواق وطبول الفرقة النحاسية تصبّ ألحان الحداد، والعرق يدغدغ ظهري من مشاهدة المسيرات في الساعة التاسعة والنصف يوم الأحد صباحاً على القناة الثانية. أرى التابوت المفتوح وبه جثة خالتي الكبرى متحزمة بثوب أبيض تُنزّل في القبر في هضبة *هام هيل*، حيث يمكنك رؤية جُزُر النهر الخضراء. كانت تلك الكذبة التي عشناها، والتي قد تعود إلينا من خلال آلاف القذائف التي قُذفت على مرّ السنوات الأربعة للحرب.

قد يأخذ القرف الذي أشعر به، شكلاً من أشكال الدين، لكنني لا أريد أن أسلّم نفسي للكره. سيكون ذلك تصرفاً رخيصاً وبعيداً عن ذوقي. حرّ شديد تحت أشعة الشمس وبرد قارس في الظلال، ورائحة بول وبراز ودهان الأحذية، تلك هي أولى ذكرياتي عن حياتي السابقة التي تتداعى إليّ لا أعتقد أنني سأتخطى شعور القرف هذا من الجمل الفارغة التي رست عليها الحالة السابقة.

إن تذكر تلك الكلمات يجعلني أشعر بحال سيئة. لحسن الحظ لا نزال نستطيع اللف والدوران ونمتلك الكلمات ذات المعاني المخفية. ولدينا نهر أونا.

اثنين

يقول مخضرمو الصحافة، أولئك الذين يفقهون كل شـــيء، أن ذلك نتيجة قوة عليا أو حالة من الخلل في بنية التاريخ أو أنها ثقـــب أبيض وسط مجموعة نجوم أو تقلب الفضاء الجزئي في المادة السوداء أو أنه انهيار لآخر مثاليات القرن العشرين أو أو أو...

تحطمَ جدار برلين فوق رؤوسنا، فأصبح سفك الدماء في مكان ما أمراً لا فكك منه. إلا أنني لم أكن مسناً صغيراً يعمل وفق القـــوى الكونية. بل كنت إنساناً حقيقياً بشخصية مكتملة، كان لديّ مهمة خاصة ووحيدة، وهي أن أنجو بجسدي. لَم عليّ أن أصـــدق مـــن لم تقترب من جسمه رائحة البارود التي لا يمكن لأي سائل تنظيـــف أن يزيلها، في الوقت الذي لا يصدقني؟ عندما كنت أحتاج شيئاً كنـــت أقوم به بنفسي. لم أنتظر أن يدق حتفي الباب، بل مشيت نحـــوه في ساعات الفجر الأولى ليلقاني برصاصة رمتني في الخندق. لطالما دفـــع الناس أرواحهم ثمن شرودهم الذهني، لكن وقتي في هذه الحياة لم يكن قد انتهى بعد. لم أفكر حينها بصاحبة المنزل السيدة المسنة السمينة من زغرب. كانت قد قالت لي ولزميلي في السكن عام 1990: "سيذبح الصرب كل من في البوسنة". ولكن أنى لنا أن نعرف ذلك نحن عمال المناجم ذوي الأكف الخشنة، العاشقين للأفلام والأدب؟

يواجه محللو النصوص صعوبة في استيعاب مفهوم الصراع مـــن أجل البقاء، لأنهم يحبون تبادل التعابير المجازية المبهمة بهـــدف شـــرح حالتي في ظل أحداث عالمية ذات تأثير كبير، والأحداث اللاحقة التي يستحيل أن تفسر الطوفان، نهر الدماء ذاك واللامبالاة وصوت جنازير دبابات تي -55 الذي يجعل دماءك تتجمد عن بعد كيلومترين.

لن أعدد كل مشاهد الرعب التي شهدتها، لأن ذلك سيستغرق كتاباً تبلغ سماكته ضعفي سماكة هذا الكتاب ولن يختلف التأثير كثيراً. ومن لم يفهم فيمكنه وببساطة، أن ينعم بجهله. سيرتي الذاتية هي عبارة عن سلسلة من المصادفات، اخترت بعضها واختارني بعضها الآخر. لو كنت قادراً على شرح كل شيء لنفسي، ربما كنت لأحفر قبراً لي، وأستلقي فيه، لأنه لن يكون هناك مغزىً من عيشي.

سيرتي الذاتية تدور حول اللحم والماء وليس هدفها التسلية. أنا في مكان ما وسط كل هذا. أنا واحد لكن يوجد الآلاف منّا نحن المحطمون الذين لا يمكن تحطيمهم. عليّ أن أخبركم بهذا: لقد قتلت رجلاً، لا بل رجال.

عندما تضغط على الزناد تزول كل مخاوفك. ليس من الضروري أن تسلك الطلقة مسارها المحدد، لكن بعضها يفعل ذلك بدقة. عندما تطلق النار تكون بخفة الريشة، ويمكن لمتعة ذلك أن تجعلك تحلق في الهواء لبرهة، لكنك في الحقيقة تكون مستلقٍ وبطنك يواجه التراب الرطب والعشب الممسد وأوراق الأشجار المُبتلة لأن هذا ما تأمرك به غريزتك.

عندما أطلق النار أشعر بنفسي وكأنني المسيح الدجال بما أنني أظهر نقيض العطف كليّاً. في تلك اللحظات يغيب تأنيب الضمير، ولا تجد من يهمس في أذنك أن العدو هو بشر مثلنا. في أرض المعركة يكون الوضع مختلفاً، فالعدو هو عدو ولا يمكن أن يكون بشراً، بل ربما يكون على شكل حشرة مجنحة ذات قرنين وبأقدام خنزير. لذا أطلِق النار ولا تقلق بشأن الكلام الفارغ الذي يتفوّه به الجبناء والفلاسفة.

قتلت عدداً من الأعداء في نزالات وجهاً لوجه، ولهذا السبب يتجنبني أبناء بلدتي. فحين أمشي في الشارع يتجه الجميع إلى الطرف الآخر. أستطيع شمّ خوفهم الذي تفوح منه رائحة الكره وكَنت وهيغل رائحة المنطق العام لحياة البشر وبما يدعونه *طيبة البشر*. كل بند من هذه البنود له عندي نصيب من الاحتقار.

لقد قتلت ثلاثة رجال بالإضافة إلى أحد الانفصاليين من جمهورية البوسنة الغربية. يشبه تأثير القتل تأثير مخدر يسقطك أرضاً، ثم يعود ليرفعك مجدداً بلمح البصر، وعندما ترتفع تشعر وكأنك فوق العالم أجمع. حوّلتُ الأجسام الحيّة إلى أشباح مثل اليراعات في الظلام.

أنا شاعر ومحارب، وسرّاً، ناسك صوفيّ وشخص مقدس على حد قول بودلير. قتلت على أرض المعركة الأشخاص ذوي الأسماء المنسية، وفي جميع المناخات: عندما يتساقط الثلج يكون الدم أحمر كما في فيلم *دكتور زيغاريو*. فقطرة دم واحدة مع القليل من الثلج كافية لكي ترسم بإصبعك زهرة أقحوان. في بعض الأحيان تساءلت لماذا أفعل هذا؟ ما هو مفهوم القتل؟ والآن بت أعرف ولم أعد أعر الأمر أهمية.

لا أشعر بتأنيب الضمير أبداً، لأنه يخيل إليّ أن أولئك الرجال ليسوا سوى صور شخصية قُصّت رؤوسهم منها. بعد فترة سيغادرون ذاكرتي إلى الظلام. لم أر البابا فوتيلا[1] في أي مكان في منطقة النزال. فلون الإشنيات على أشجار مناطق المعارك يشبه لون البقع على ظهر كفّيه. في الحرب يكون كل شيء بسيطاً وواضحاً إلا

(1) يوحنا بولس الثاني Wojtyła.

telegram @ktabpdf
مكتبة ٣٦٢

عندما تعلق بعض الدماء تحت أظافرك فتكون إزالتها صعبة وتدوم لأيام.

قتلت لأنني أردت النجاة من الفوضى. لم أكن على علم بطريقة أخرى لفعل ذلك، ولم يسمح لي كبريائي بأن أقضي الحرب في الصفوف الخلفية للجيش. هناك من قام بذلك بطريقة مختلفة عني: فأولئك قاموا بالدعاء في سبيل ألا يصابوا، لأنهم مفعمون بالحياة والقوة وكان يمكن أن يُقتلوا وهذا ما أرهقهم. إن الخوف من العيش مع كل تلك الطاقة الرهيبة فيهم وعدم معرفتهم كيفية التصرف بها جعلهم يتقدمون دون أن يهابوا وجهتهم وعيونهم مفتوحة وقلوبهم نقية. كان عليهم أن يتقدموا ويهاجموا لأن حياتهم كانت على هذا النحو: حياة هائلة وأكبر من الموت، لكنني كنت هادئاً وعلى دراية بما أفعل.

لم أسكر أو انتش وأنا في صفوف المواجهة. كنت دائم التركيز، ولهذا السبب أنا قادر الآن على أن أخبرك بهذا. فكما تعلم، الأفواه الميتة لا تنطق. إن كنت تظن أنني قاسي القلب فأنت مخطئ. أنا أشبه النازيين بعض الشيء، فأنا أحب أن أستمع لمعزوفات باخ تُعزف بمنشار *ستل*، ولا بأس بمنشار *بلاك أند دكر*.

ثلاثة

كانت أشجار الغابات فيروزية اللون تميل بخفّة من جهة إلى أخرى مثل سويقات شقائق النعمان. هكذا كان المشهد عن بعد، على حافة الأفق، كما يُرى من خلال لوح زجاجي مغشّى، كألوان قوس القزح، لأنني كنت أدرّب مخيلتي. لكن الأشجار في الواقع

كانت رمادية اللون مغطاة بالإشنيات وعليها قلة قليلة من حبات الهدال التي لم يكن لخضارها صلة بأمر شحّ مادة اليخضور في الطبيعة ولا في أرواح الناس.

كانت الألوان عوامل متسللة من ثقافة الغرب، تدل على الرفاهية والغِنى و لم يكن لمثل هذه الأشياء وجود في حياتنا. على هذه الجهة من اللوح الزجاجيّ كنت سيّد واقعي داخل المنزل، أما في الشوارع خارجاً، فكانت القصة مختلفة. شرفتي تطل على بلدة صغيرة، لم أستطع يوماً أن أشعر بالانتماء إليها، وكنت صغيراً جداً على هذا النوع من الحب. مدينة ملساء كالقيء الدافئ تحت أشعة الشمس.

كانت الدولة بالنسبة إليّ حينها مثل جرم بعيد من أطلس الأجرام السماوية، ولاحقاً بت مولعاً بها جداً على الرغم من الجهد الخارق الذي قُدّم في سبيل ستر الفوارق بيننا وبين القصة الطويلة عن كوننا إخوة وأخوات، وعن أن كل شيء في يوغسلافيا هو الأفضل، بينما عمّ الأسى والبؤس والفسق الشرق والغرب. يا لها من كلمة رنانة *الفسق*.

شعرت أنني غريب وسط بلدتي عندما أدركت أننا لسنا جميعاً إخوة وأخوات. ليس لأنني لم أرد أن نكون كذلك، بل لأنه لم يكن هناك وفاق بين الصرب والكروات، هذا دون أن نأتي على ذكر المواقف السخيفة التي حصلت أثناء خدمتي الإلزامية العسكرية في الجيش اليوغسلافي حين كان عليّ أن أعرّف عن أصولي. بما أنني انحدر من عائلة بوسنية الجنسية، حاول الصرب والكروات أن يقنعونني بأن أكتب "بوسني مسلم" لأنه، وكما قالوا، لا وجود للشعب اليوغسلافي.

أجل، عشت بهوية هامشية وسط البلد التي سُميت هويتي بـه، عندما اكتشفت أن عدد الأشخاص الذين يعرّفـون عـن أنفسـهم كيوغسلافيين ضئيل جداً. عندما أنهيت دراستي الجامعية، وذهبـت لأداء خدمتي العسكرية، نصحتني أمـي أن أعـرّف عـن نفسـي كيوغسلافي، لأنها كانت تظن أن الجنود الآخرين قد يسخرون مـني إذا ما صرّحت أنني مسلم.

لم يكن لاقتراح أمي ولا اقتراح أصـدقائي أهميـة عنـدي، لأن تفكيري كان منصباً على الحرب الأهليـة في إسـبانيا وقـد حزنت لاستحالة العودة في الزمن إلى إسبانيا لأمـوت في سـبيل الحرية. كانت تلك الحالة الوحيدة التي تفعّل فيها حسّ الوطنيـة عندي.

دوت صيحة من مئة حنجرة: "تيبيتو! نحن جزء من...؟".

- "الشعب!".
- "ما الذي يقودنا ويوحدنا؟".
- "الحزب".

ميّزت وجوه من كانوا في الصفين الأمـاميين. كانـت علـى وجوههم نظرة آلية، وكان لعابهم يسيل انتظاراً لوجبة كـبيرة مـن اليخنة التي تُحضر في مطبخ المعسكر. بدا وكأن الهدف الأسمى للثورة اختُصر بهذا. دوى الصوت في مركز المدينة نحو المستشفى، ليُقمـع بصوت أبواق السيارات وصياح السُكارى. وقف شاب يدعى ياب وسط ذلك الضجيج؛ رجل سمين ذي كرش كبير يشبه الكعك المدوّر ويصبح مثل أحد القوارض الغاضبة عندما ينفد مخزونه من الشـراب. على خلاف والده، ياب الأب.

ياب الأب، ذي الجسد الصغير الذي تشبه بنيته بنية الطيور الهشة، وخاتمه الذهبي، وشعره الممسد للوراء بمستحضر تصفيف الشعر بطريقة تقليدية: حشر نفسه بهدوء في الصف بينما يزيل غطاء القنينة. الشاب الذين ينتمي إلى العصبة الشيوعية ويصيح بأسئلة كانت أجوبتها لا تقبل النقاش كفكرة وجود قرنٍ ثانٍ على حيوان وحيد القرن، كان على وجنته وشم على شكل دمعة – "ميدالية" إصلاحية زينكا سيئة الصيت.

في مكان ما في فهرس القرف والجاذبية يوجد ترانيم للغجريّ الأعمى الذي كان يقف بوجهه الذي تغطيه التجاعيد وشعره الأسود المتلبّد، في سوق البلدة كل يوم إثنين في أواخر عام الثمانينات، وسط الجموع المتعرقة والغارقة برائحة خثارة الجبنة. "من مال الله يا محسنين.. أدام الله صحتكم وحمى لكم أطفالكم...." كان هوميروس الشعب هذا يقف كالتمثال على ناصية الطريق يتلو دعواته التي وفّقت بين الإسلام والشيوعية. كانت عائلته تأخذه إلى هناك كل صباح لكي يتسوّل وتعود لتأخذه مجدداً عندما تغلق المحلات التجارية وكأنه روبوت لا يعمل جيداً.

في فترة ما قبل الحرب، غادر هوميروس إلى الجنوب مع طيور السنونو. كنت لأقسم أنه لأربع سنوات بعد ذلك لم يرَ أحد أي طائر سنونو.

شعرت أنني بين كفيّ الافتنان لما انجذبت إليه من أشياء أمقتها بنفس الوقت، كما تنظر من الشرفة، فتكون مُهيّأً للسقوط لكنك لا تقوم بتلك الخطوة في الفراغ مثل شخص سيقفز انتحاراً وهدفه موقف السيارات في الأسفل. لا بدّ وأنك فكرت

ببطنك بينما تحمل سكين المطبخ الطويلة تلك- هذا هو الافتنان نفسه الذي يعتريني عندما أفكر بالحياة في يوغسلافيا سابقاً وانقسامها.

أربعة

لا تشعر بالدوران من مشاهدة نهر جار. فإذا ما بدأت بالتكلم عن شيء ما فسرعان ما سيتفكك حبل الأفكار في رأسك لأن الماء سيستحوذ عليك، وستنسى الكلمات التي كنت تنوي قولها، وستدور في رأسك أغنية (استمتع بالصمت) لفرقة دييبش مود.

لقد استمتعنا بمشاهدة سطح نهر أونا يجري تارة ببطء وتارة بسرعة باعثاً السلام في النفوس. وتجنبنا ذكريات سريتنا في الجيش لأنه لم يكن لدينا وقت للأمزجة المتعكرة التي تعود لحقبة النظام القديم، التي ستبقى معلقة فوقنا مثل الروح المعلّقة.

واستمتعنا أيضاً برؤية المصانع على أطراف المدينة، حيث بدأ الناس بإنقاذ بعض الصفائح المعدنية. في ذلك الوقت كانت المصانع والمنازل الصربية تُنهب حتى آخر لُبنة. ولكن من يتذكر الآن حوادث الموت الغريبة للبائسين الذين سُحقوا بأسقف المنازل المهجورة حيث كانوا يدقون الجدران ليسحبوا منها القرميد؟

منذ أوائل شهر أيلول عام 1995، ولأشهر أخرى تالية، عبرت قوافل من الجرارات والشاحنات والعربات التي تجرها الأحصنة البلدة محملة بما نُهب من القرى الأخرى في سلسلة جبال الجرمك، متجهة نحو البعيد. لقد كانت الرغبة الجامحة بنهب ممتلكات الآخرين بمثابة وباء لم نعرف كيف انتشر ولا كيف سنسيطر عليه.

اجتمعنا في سريّتنا لنحتفل بالعديد من الأشياء التي لم نرد أن نسميها بمسمياتها. شربنا النخب بهدوء مبهج، دون أن ندق كؤوسنا ودون مظاهر احتفال مفرطة. أخذتنا رحلتنا المليئة بالمشروب، إلى قافلة تبيع المشروب تحت ظل أشجار الخوخ. قادتنا أقدامنا إلى هناك. كان الظل مثالياً، كما المشروب، فتركت قصصنا الواقع خلفها. اقترح أحدهم لاحقاً أن نذهب لنرى الصالة المجددة حديثاً في المركز الثقافي، لأننا كنا نحب الأبنية التي لم تمسسها الطلقات التي كانت رابطنا الملموس مع الماضي مباشرة. استرقنا النظر خلف الستائر الثقيلة المطرزة، حيث كانت تُعرض الأفلام السينمائية.

كان حزن كينغ كونغ بسبب حبه المستحيل لامرأة ما، واضحاً في رطوبة الهواء، مصحوباً مع شهقات ودموع. أفضل ذكرياتي من تلك الصالة كانت زيارة فرقة سحرة إيطالية في أواخر السبعينات. جذبوا أفاعي الكوبرا وطعنوا بالسيوف امرأة قزمة داخل صندوق، لتعود وتخرج منه مجدداً إلى الجمهور المتحمس المخدوع، مرتدية بذلة سباحة، فرحة وغير متأذية إطلاقاً. قاموا أيضاً بمعجزات أخرى منها أكبر من تلك ومنها أقل هيبة منها.

كان هناك أيضاً تلك الفقرة حيث مارس الدرويش التنويم المغناطيسي على الصبيّ الذي تسلق الحبل المعلق، وفي فقرة أخرى قطّع الدرويش الصبي إلى قطع، ثم جمع تلك القطع ووضعها في صندوق ليعود بعدها الصبيّ قطعة واحدة.

تلك الليلة، قدّم سيرك رامانا عرضاً. كان المنوّم المغناطيسي يقوم بتدريب أخير، وكان بحاجة إلى متبرع. وها أنا ذا، شاعر مرموق وجندي حارب في الحرب المقدسة. حتى الآن، لا يزال سبب اختيار

الدرويش لي من بيننا نحن الثلاثة لغزاً. كنت قد جلست لتوي، وأسندت ظهري إلى الكرسي الجلدي وسط صالة المركز الثقافي. وباستثناء الندبة التي كانت تعبر وجهي بشكل مائل، لم يكن هناك ما يميزني!

قبل الحرب، كانت الصالة تتسع لسبعمئة مشاهد، وعندما يعرض فيلم كينغ كونغ أو بروس لي أو غودزيلاّ، كان الناس يجلسون على الأرض. ولكن لم يسبق لي أن رأيت المدخل الرئيسي أو خشبة المسرح ذات الستائر الثقيلة المطرزة. في ذلك اليوم سطعت الشمس على أغصان الحور والجوز وغردت العصافير على الأفنان. لقد خدعني صديقاي عندما جلباني إلى هنا بحجة رؤية الصالة المجددة. كانا يأملان أن أرى سيرك الحيوانات، وخاصة القردة الثملة الراقصة.

"منذ فترة قصيرة، أعتقد في فترة ما بعد الحرب، جاء سيرك إلى ملعب كرة القدم في بانجلوكا. أخبرني الشاب الذي ذهب لمشاهدته، كان يوجد ساحر مع قرد صغير على سلسلة - إما قرد المانـدريل أو البابون، لم يذكر بالضبط - وبدأ الساحر بأرجحة السلسلة. فبدأ القرد وبدأ يحوم فوق رأس الساحر أمام خمسة آلاف مشاهد. وهل تعلم ماذا فعل؟".

"كلا.. ماذا فعل؟" سألت الشاب.

"تمسك بالسلسلة بشدة، وكأنه إنسان صغير". قالها وضحك بعدها ضحكة رجل مدخن.

دخلت وأصدقائي من الباب الجانبي ومعنا زجاجات الجعة، فصادفنا الدرويش ومعه مصباح بيده. كان من المقلق رؤية شخص ذي لحية ويرتدي عباءة، يراقبنا. بدا وكأنه ينتظر قدومنا لأنه وجودنا

لم يفاجئه. بدأنا بحديث لبق حول صدق التنويم المغناطيسي، وبعدها أشار الدرويش إليّ بإصبعه، أطفأ المصباح الذي يحمله بيده واختفى في الظلام. تسارعت نبضات قلبي. لطالما كنت من محبذي التحديات الغريبة. كلما زادت نسبة الجنون كان ذلك أفضل.

فرّ النور بسرعة من الممر الضيق بالسرعة نفسها التي تلاشى بها من كان بصحبتي. عندما وجدت كرسيّاً وجلست فيه، أنيرت بقعة ضوء على خشبة المسرح. دفعت بزجاجة الجعة تحت الكرسي. انقطع عندها الرابط الزمني بين حياتي قبل الحرب وحياتي بعدها، وكان على الانقطاع أن يُصلح، لأنني أردت أن أكون كياناً واحداً، ولو حتى في الذاكرة فقط، تحولت إلى مسافر عبر الزمن وعدت إلى الماضي: عنى ذلك قيامي بالمهمة المستحيلة، وهي تجاوز الحرب، وتخطي شعوري بالغثيان لكي أجد ذلك الرابط الزمني لأصل بين الماضي والحاضر.

تلك كانت المرة الأولى في حياتي التي تكون الندبة على وجهي ذات فائدة، بما أنها جذبت امرأة مخبولة ورجال شبه مجانين، هل كنت واحداً منهم أنا أيضاً موسوم بالتشوّه- هالة سوداء غريبة فوق رأسي؟ أتى الجواب بالإيجاب. هذا النوع من الجذب لم يكن نعمة، لكن باتت الندبة تذكرتي للمشاركة في العرض.

خمسة

مشى المنوّم المغناطيسي على المسرح بعمامة مليئة بأفاعٍ صغيرة فحّاحة، لحظتها انتشر ضباب وصل حتى ركبتيّ.

ظننت أنني سمعت أصوات الفيلة التي أتذكر أنني سمعتها في شوارع سارايفو. ففكّرت للحظة، بينما كان نظري ينتقل من سقف

الصالة إلى الجدار فوق خشبة المسرح حيث مُزقت الشعارات التي تمدح تيتو والناس والحزب والحياة الأبدية الموعودة للجميع. لم يكن لديّ أي صورة لي من فترة ما قبل الحرب، فكيف لي أن أفكر بماضيي إلا كشيء غير موجود. أغمضت عينيّ واستحضرت إلى ذهني فيلم الفيديو باللونين الأبيض والأسود (حياة رائعة). سأرفق هذا الفيديو على أنه آخر دليل على أن عالمي الخاص موجود بالفعل، بالرغم من أنني في بعض الأحيان اعتقدت أنني اختلقت ذكرياتي.

شيئاً فشيئاً تبدد صوت الرياح حيث طغى عليه صوت طقطقة الأسطوانة المتواتر بفعل التنويم المغناطيسي. كنت في حالة من التحقيق الوهمي. *لا داعي للهرب والاختباء. إنها حياة رائعة.. رائعة جداً.*

في كل مرة قال فيها المنوّم المغناطيسي رقماً، كنت أرتب موجة من الأفكار لتصبح على شكل اعترافات. لقد بدا لي الأمر مختلفاً، فالجمهور بدا متشوقاً، وخيّل إليّ أنهم مستعدون للاستماع إلى ما أقوله لساعات وساعات. أصبحت الآن شبيهاً بشخص موجود على جهاز عجيب يحلل حياة الناس وكل ما كان ينقص الآن الضغط على زر التشغيل.

شعرت بنفسي أتحول إلى مرقاب يمكن الرؤية من خلاله أو عدسة مكبرة في مجهر وإلى جانبي زهرة أوركيدا مهجنة طويلة السويقة وكنت أتفوه بقصص غير صحيحة.

لم تكن الموسيقى المختارة عادية، لأنه في العادة يتم اختيار موسيقى مهدئة للأعصاب تمهيداً لعملية التنويم المغناطيسي. وقف الدرويش ذو اللحية البيضاء منتصب القامة مثل الشمعة وسط بقعة الضوء على خشبة المسرح. كانت عيناه رماديتان وباردتان وبدا

التشوش على ملامحه. خاطبني بلهجة بوسنية غير سليمة بعد أن أنهى العد التنازلي:

"ستعود الآن إلى ماضيك، وطفولتك.. صفي ذهنك وأخبرني كم عمرك الآن؟".

"ثلاثة عشرة عاماً".

"أمتأكد؟".

"أجل. عمري ثلاثة عشر عاماً وقد غادرت المنزل للتو في طريقي لصيد الأسماك. إنني أنتعل جزمة مطاطياً وأحمل قصبة صيد وحقيبة صيد. تفوح رائحة الأسماك والطحالب من الماء. الأسماك كثيرة وجميلة ولن تمل إن شاهدتها، مشاهدتها تبعث في النفس حبوراً كالذي يشعر به البخيل وهو يربت ويربت على ما يكتنزه من قطع ذهبية. إنني أتفقد طوف الصنارة الذي يجب أن يغمر الماء نصفه، وأزيّت الطعم كي لا يطفو على سطح الماء.

أنا أرمي خَيط الصنارة حتى يصل إلى الضفة المقابلة ويحط على الشاطئ الرملي الناعم المغطى بالطحالب. بدا لي الأمر وكأنني وضعت طواف الصنارة على وسادة خضراء اللون. والآن أسحب خيط الصنارة بلطف إلى الماء لأن السمكة تنتظرني على بعد متر أو اثنين. سمكة بطول ثلاثين سنتمتراً تعد جيدة، أما سمكة بطول أربعة وعشرين سنتيمتراً فتعد مقبولة.

أشعر أنها ستكون معركة طويلة. أستخدم رأس الصنارة لأبعد الخيط عن الطُعم لقد أعطيتُ القطعة الأخيرة دفعة صغيرة كي تدخل في فم سمكة كبيرة. أترقب الطعم، تسبح السمكة صعوداً نحو الطعم، تتجاوزه ثم تشكل فقاعة كبيرة في الماء. بكرة الصنارة موجودة على

جانبي الأيمن فأسحبها فوراً مثل القناص ويسبح الطواف الصغير مع الطعم نحو العشب بالقرب من قدميّ. حصل ذلك بسرعة كبيرة لدرجة أنني لم أر سوى صدر السمكة الأبيض بينما تسحب الطعم بفمها. عليّ أن أهدأ وأن أرمي الخيط مرة أخرى. أنا متحمس جداً لدرجة أنني لم أنتبه للأشخاص الموجودين عند الضفة يحدقون إليّ وإلى السمكة.

بدأ البخار الاصطناعي يغطيني ببطء شديد. مضى وقت وأنا أغرق في السواد اللامع وضوء الرواسب الوردية اللون، لمحت بيوتاً تعلو من الأرض تحت قدمي والدخان يخرج من مداخنها، إشارة على أن الحياة انتقلت إلى ضفاف نهر أونا. كانت جذوع الأشجار في منتزه البلدة رفيعة والمدينة بحد ذاتها جديدة كلياً.

لا أعلم من بات مقرّباً من الآخر، أنا من المدينة أم العكس، لكن حيثما أنظر أراها، تكون تحت ناظري. أستطيع تبديل الأعوام والعقود كما أشاء. رأيت الجدة أمينة لذا علمت أنه عليّ التوقف. تبدأ الرحلة هنا وستكمل من هنا أيضاً لأن هذه الرحلة لا تنتهي أبداً. أحاط البخار الاصطناعي بي حتى عنقي، وتوقف عند عنق قميصي. سأحكي كل شيء، حتى الأشياء التي لم يسألني عنها الدرويش".

بحارو الجيش الأخضر

لمع ضوء في الهواء، ضوء يوحي بالاحتفال، ويعلن سيرك الطبيعة عن رحيق الأزهار وانتصار الخَضار في منتزه البلدة. استحوذ جوّ ربيعيّ على كل فكرة وكل بقعة عشب معترضاً مسارات الحشرات الطائرة التي اصطدمت ببعضها أثناء طيرانها.

ثملت الأرض والهواء عندما أعلنتْ ولادة شيء خلاّب. الربيع هو تلك المعجزة التي تتجسد مثل الألعاب النارية في السماء، عندما يحرك الهرمون فتنة الفتاة والمرأة، فيتهيّأ بركان كراكاتوا الموجود في سروالك، للثوران.

كنت لأقرص نفسي لأتأكد من أنني لست خالداً، لأننا صورة عن الله، وللحظة اعتقدت أنني مخلوق مبارك. الربيع هو ذلك الاحتفال الذي قد يودي العالم بأسره إلى حافة التغيير. وبطرفة عين، يصبح الشتاء الرماديّ اللون عشباً أخضر يمكن أن نبحر عبره لو أننا قادرون على أن تقليص حجمنا ليصبح بحجم نملة أو جندب. وكان هذا شرطاً صعباً في عالم تحكمه قوانين الراشدين الذين حاولوا جعلنا نحذو حذوهم بشتى الطرق- الرجال العابسون ذوي الشوارب الذين نفذوا مهمات مهمة لدولتنا العظيمة. لكنني لم أرد شارباً و لم أكن على عجلة من أمري كي أنضج في السن.

أنا أؤمن باللون الأحمر على وشاحي كرائد وفي دماء أفراد

الطبقة العاملة الذين اصطفوا في مصانعهم المظلمة الكائنة تحت الأرض متعطشين للثورة عندما انتشلهم ماركس وهيغل ولينين من الموت. لكن لم يتطلب الأمر مني لاحقاً سوى قراءة كتاب كارلو ستاجنر "سبعة آلاف يوم في صربيا" حتى أشطب الشيوعية من لائحة المدارس المفضلة لديّ في يومياتي أيام الدراسة الثانوية بالرغم من أنها كانت مكتوبة بقلم رصاص وبيدٍ مترددة.

في لغة ذلك الحزب، كنت قد أصبحت ثورياً؛ بتٌّ مثل روزا لكسمبورغ[1]، التي كنا نكرهها لأنها هجرت نهج الثورة الحقيقي وأصبحت إحدى عملاء الإمبريالية؛ على الأقل هكذا قُدم لنا الأمر في الكتب الماركسية. توجب على كل شيء أن يصب في خدمة دولتنا، رابع أكبر قوة عسكرية في العالم، التي كنا أكثر من فخورين بأجنحتها الحديدية. حتى إن المنتزه الصغير في بلدتنا تباهى بشجيرات صغيرة تدل على الوطنية، زُرعت بدقة هندسية بالغة لتشكل بأوراقها رمز النجمة الاشتراكية. كانت تلك النجمة الورقية منزلاً لأعشاش طائر الحناء الذي يمثل الطبقة العاملة بين أصناف الطيور- جيش أحمر بمظهر موحد وبأبعد ما يمكن عن وحدة الصوت، لكنهم شكّلوا جناحاً

(1) أسست مع ليبنيخت "عصبة سبارتاكوس" عام 1916 التي شكلت بعد سنتين نواة الحزب الشيوعي الألماني وكتبت برنامجه بنفسها. استنكرت "الإرهاب البلشفي" في روسيا سنة 1918-1919. في مطلع سنة 1919 أي بعد شهرين من إعلان ليبنيخت للجمهورية الاشتراكية الألمانية اغتيلت معه من قبل جماعة يمينية عسكرية متطرفة وبذلك قضي على ثورتهما في المهد. تبنت نظرية الإضراب العام. عدوة لدودة للحرب العالمية الأولى. تخلت عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني. ساعدت في خلق "عصبة سبارتاكوس" وفيما بعد الحزب الشيوعي الألماني. نقدت الحكومة السوفياتية. اغتالها الجيش الألماني.

telegram @ktabpdf
مكتبة ٣٦٢

مثابراً ومطيعاً الذي لطالما حاك منازله الرمادية المعلقة المتدلية من تلك الشجيرات التي تنضح ثمارها بالحمرة مع شيء من الطعم المر.

بالرغم من ذلك، طيور الحناء مخلوقات ذات تشكيلة ريش بهية، وتعمل بجدّ لتوسّع جماعاتها الاجتماعية والسياسية، مُشكلة بذلك تجمعاً آمناً للطيور، يعمل وفق مبدأ *من كلّ على مقدرته، كلّ على قدر حاجته*. بالفعل لم يكن ذلك المجتمع يعتمد الطبقية، لأنه لأعضائه حقوقاً متساوية كما في الأراضي السويدية الباردة.

"إياك أن تدوس على العشب". صرخ كوستا، حارس الحديقة، بزيّه الرمادي المخضر وقبعته الفروية، التي يمكن لظلها أن يغطي عائلة من عشرة أطفال أو أكثر.

"يكون لون العشب أحمر إذا ما قررت اللجنة المركزية ذلك". حاول كوستا أن يخيفنا مذكراً إيانا بالبيت الماسوني الكبير الذي كان يدير دولتنا. كان سبب تهديده لنا أننا أحببنا المشي على العشب وقطف أزهار الأقحوان وأزهار الهندباء التي تأخذ شكل النجمة. كنت خائفاً من قبعته الفروية أكثر من عظام وجهه البارزة، وعينيه الغاضبتين زيتيتي اللون اللتين كانتا تحدقان بدل أن تلقيا التحية. قوة الولاية يمكن أن تظهر من خلال حقيقة أن أخفض المستويات فيها – التي يمثلها حارس الحديقة كوستا – كانت تبعث الرعب في النفوس.

كنا نتجنبه مثلما يتجنب الناس المصاب بمرض الطاعون، وكنا ننتظر ذهابه إلى المدينة لكي يردد شعارات الحزب التي حفظها عن ظهر قلب والتي تجعل لحاء أشجار الأكاسيا أنعم، لننطلق بين الشجيرات البرية ذات الأفنان القوية وعلى طولها بتلات أزهار صفراء صغيرة؛ كنا نسميها ماجيلانا، لكنني اكتشفتُ لاحقاً أن اسمها

فرسيتيا. كانت تلك الشجيرات قواربنا التي سميناها تيمناً بالبحار البرتغالي، فيرديناند ماجيلان.

كانت كل شجرة تتسع لبحار أو اثنين. مع نمو الشجيرات أصبحت متراصفة، ما أتاح لنا ركل بعضنا أثناء رحلاتنا الخيالية. كان الوضع أفضل في فصل الربيع عندما تهب النسمات الدافئة، فيغدو الأمر وكأن عاصفة ضربت أشرعت سفننا وصدمتنا بالأغصان مثل بحارة يصارعون البحر الهائج. بدأ كل شيء بالدوران حولنا، العشب والأشجار والحصى على الدرب الترابي والمنازل المجاورة. كانت تلك اللحظة التي تحررنا فيها من الجاذبية. دارت الأرض وتدلى العالم فوقنا، لكننا أعطينا أوامر صارمة وانطلقنا بشجاعة إلى البحر الذي كان عبارة عن السماء الواسعة. أبحرنا من دون خوف ومن دون أن تلعب قلوبنا دور البوصلة.

انظر، كان مكان الشجرة الكبيرة هنا، حيث كان جذعها الكبير مغطى بنبات العليق، لذا كان من السهل تسلق قمتها ولم يكن من السهل تميز أي الأوراق ينتمي إلى الشجرة وأيها ينتمي إلى نبات العليق. كنت أتسلق إلى الأعلى حيث الهدوء والسكينة. كانت الشجرة تظلل البيت الذي أسكنه يقبع خلفه شارع النقيب تيتو، حيث يمر الأشخاص والسيارات وعربات الخيول وسيارات الإسعاف والنساء القرويات، فضلاً عن النساء اللواتي يحملن أعباءً ثقيلة على رؤوسهم؛ أعناق النساء قادرة على حمل العالم وعلى حمل قطع الأرض التي تحمل بيوتهن. وكذلك كان يمر رجال مسنون أيضاً، يبصقون شيئاً يشبه قسوة حياتهم، كان كل شيء يمر هناك؛ طوابير السحالي والنمل والخنفساء وصفوف الماشية القادمة من المراعي على

جبال الجرمك، والرعاة المتجولون بقبعاتهم الفروية الشبيهة بقبعات القوقازيين بالإضافة للعميان والسكارى، والأطفال والعمال الذين كانوا سكارى بدورهم، وقوافل الأشخاص الذين لا يفقهون شيئاً، لأن أياً منهم لم يكن يرى المستقبل.

أعلى الشجرة كان الهدوء والسلام. هناك أشعر أنني خفيف تماماً، لا أشعر بوجودي. كان بإمكاني أن أغلق عينيّ ليغدو العالم عديم القيمة بالنسبة إليّ. كنت بمفردي تماماً وكأنني ضوء ضئيل في الظلام قبل أن تهب العاصفة من جبال الجرمك. جسد واحد ارتعش من البرد بينما هبت الرياح بين أغصان الشجيرات الخضراء. شاهدت من منظوري حياة عادية، الحياة السرية تحت منتزه البلدة على جانب الطريق المعبد الذي مر به *كوستا* عبر تاريخ الليل، ليرتب الغيوم والأجسام السماوية.

بغض النظر عن أرداف الإناث الخلابة، بدا بحر الشجيرات مسالماً ساكناً لا هائجاً. لا فرق بين الماضي والحاضر. *اسبحوا وكأنكم الماء نفسها*. كنت خائفاً جداً من فكرة الموت، لكن حيثما نظرت وجدت نفسي وكأنني غير مرئي.

أنا رائد فضاء على الأرض، مسافر من دون أي حركة أو هدف، فالهواء الطلق سجني. يا ليتني أستطيع الحوم في فراغ الفضاء الخارجي في مكوك فضائي خشبي ذي فتحه، لكنت قلت: "كوكب الأرض أزرق وليس هناك ما يمكنني فعله حيال ذلك". يا لها من أحلام سعيدة! أنا رائد فضاء أرضي أسافر بسرعة الفكر. لن أعيش كفاية لأرى مناظر السفن الحربية الخلابة تشع أضواؤها على حواف كويكبات أوريون كما في الفيلم. ولن أستطيع رؤية الروبوت

الأشقر الذي يلعب دوره روتغز هاور في فيلم العداء ذي الشفرة. وهو يجلس على مبنىً ما، عارٍ تماماً ويضع ساقاً على الأخرى قائلاً جملته الشهيرة: "حان وقت المَوت" قبل أن يغمض عينيه ويقضي تحت المطر الغزير والسماء المظلمة. لن أخترق الغلاف الجوي، حيث لا يعرف أحد خلفه، متى ينتهي الخيال وتبدأ الحقيقة والعكس صحيح. أليست كل أفلام الخيال العلمي تدور أحداثها الآن في الفضاء؟

أنا متوتر لأن الفجر قريب، أكوّر كفيّ على شكل منظار لأشاهد فيلم نجمة المساء وأكون آخر من يغادر مكان المشاهدة.

"الصيف ليس وقتاً للموت": هذا ما قاله البارحة بعض كبار السن وهم يحدقون من الجسر الخشبي إلى النهر المتدفق. لكن النجوم انطفأت كما تغادر الأرواح الأجساد فجأة وبسرعة. هذا ما قرأته مرة في كتاب ذي عنوان غامض واقعي ممل وبعيد كل البعد عن الخيال. وأنا لا أحب الكتب الواقعية. فأنا أفكر أنّ قلبي ينبض محاكياً مجرات أخرى.

الليل بالنسبة إليّ، ليس الوقت الذي تخرج فيه الأرواح من حيوات سابقة لتمنعك من النوم. بل هو فراغ، إنه الفجوة بين غروب وشروق الشمس، إنه شر ضروري ولا بد منه.

أنتظر الفجر لأنسلّ من تحت الغطاء في منزل جدتي. يكون الجو بارداً نوعاً ما حتى في حزيران، لكنني لا أستطيع الانتظار حتى أرتدي سروالي القصير وحذائي وأتسلق السلالم المحفّرة جرّاء المطر، وأصل إلى المصطبة المغطاة بالطحالب حيث تكون آثار البزاقات برتقالية اللون. أود أن أسافر برأس إصبعي على طول تلك الآثار إلى أن أصل إلى الفجوات والتشققات حتى آخر حد. الشعور بعدم القدرة على دخول

تلك الفجوات والزحف داخل ورقة بلانتاغو، أو البرعم الأبيض المعلق قد يسبب لي الإزعاج لاحقاً في أوقات حرجة.

جدران منزل جدتي سميكة ودافئة مصنوعة من حجارة التوفا الموجودة على ضفاف النهر. هناك ساعة معلقة فوق رأسي حيث يترنّح رقّاصها أمام جملة غير مفهومة Tempus Vulnera Curabit، وفي أي وقت أقرأ تلك الكلمات أنكمش كالقميص المغلي.

أحياناً تبدو أجسام البزاقات الرفيعة، أدكن، أحياناً تكون حمراء أو بنيّة في برودة ظل الأبنية القريبة المكونة من ثلاثة طوابق. يتحول لونها لاحقاً إلى الأصفر الشفاف تحت أشعة الشمس التي تشرق فوق أسطح المنازل التي تبدو بالنسبة إليّ كقلعة من العصور الوسطى التي لا يخرج منها أحد بوجه سعيد.

يتبعني ولد بعينيه المتوسلتين. إنه بنفس عمري لكن ملامح العمر تبدو عليه. تظهره الخطوط على وجهه وكأنه رجل مسن مرهق بعيني ولد بريء. يلوّح ويبتسم من النافذة التي تؤطره فيبدو وكأنه لوحة.

البزاقات النحيلة المشردة من قواقعها، بين الشقوق المليئة بالطحالب. تتحسس بقرون استشعارها هواء الصباح. تنكمش تلك القرون عندما ألمسها فتتوقف عن حفر خنادقها اللزجة التي ستظهرها الشمس بجميع ألوان قوس قزح كالطيف على هضبة غولغونا، التي لن يصلب أحد عليها.

كانت نعومة أجسامها صادمة ومثيرة للمشاعر، لذا أحببتها، وأشفقت عليها في الوقت عينه. لم أستوعب كيف لجسد حتى أن يصبح جافاً وكومة بلا حياة تحت شمس منتصف النهار. وبعدها

استدركت، وعلى مضض، أنها هي أيضاً لها نهاية حياة. كأي كائن حيّ آخر.

كنت أنهض وأركض كل صباح لأرى البزاقات، إلى أن حدثت جريمة غامضة. أزال أحدهم الطحالب من الجدار... وسد الشقوق بالإسمنت.

ما من شك أن قاتل الطبيعة كان طموحاً جداً وبالطبع مثابر بشكل مرضيّ. من هو؟ هل هو رجل مسن أراد أن يزيل كل الشذوذ عن سطح الأرض؟ أم نجّار مهووس بالهندسة، يكره وجود العُقد الموجودة على أعماله الخشبية التي تشبه الجرات لولبية الشكل؟ أم بنّاء يتعبه الفراغ حولنا ومغلوب على أمره بأن يبني ويبني بغضب. من هو ذاك الشرير الذي سعى وراء قتل المخيلة؟ حزنت على البزاقات ليومين ثم نسيت أمرها بسرعة حزني عليها. كان عليّ أن أزيل عن كاهلي شعور الحزن ذاك، وأن أجد شيئاً جديداً. وحينها اكتشفت الأسماك. أدركت إنها حرة لأن الماء عبارة عن حقل من الحرية. الأسماك الكبيرة، كغواصات أنيقة ذات حراشف، تعطي انعكاساً خفيفاً عبر الماء والهواء. وأسماك الكراكي الأسرع من السهام، تتشمس بين الأعشاب المتمايلة، ومنها تنطلق نحو فريستها. واكتشفت أيضاً أسماك البربس ذات الشوارب التي تقتات في القاع حيث اعتادت أسماك أبو الشص أن تقتات على بقايا اللحم المشوي. ثم هنالك أسماك الروش، وهي مثل أبقار ترعى لكن في مياه النهر. واكتشفت أيضاً أسماك البربوط أو "الصواريخ السمكية"، التي تقفز من الماء لتلتهم الحشرات المضيئة بشراهة. ثم هنالك سمك السلمون، سيد الشلالات وقيعان الأنهار.

بعض الأشخاص يستطيعون قراءة المستقبل من ترسبات القهوة، أما أنا فتعلمت أن أراقب السمك بدلاً من ذلك. من البديهيّ أن أعود إلى أصولنا: إلى الماء الذي شكّلنا، وإلى الدوامات المائية حيث أستمع إلى سمك السلمون الشيوعيّ بثرثرته المثيرة للغثيان.

ستكتشف لاحقاً سبب شيوعية أسماك السلمون. أقصد بقولي "ثرثرته المثيرة للغثيان" لقد قال الشاعر "رامبو"، سأكون قارباً منوماً مغناطيسياً وسيحملني النهر حيث أريد.

جمهورية الماء

كان نهر أونا وضفافه ملجأي وحصني النباتي المنيع. هنا أختبئ تحت أغصان الأشجار من الناس، وحيداً في الصمت تحيط بي الطبيعة الخضراء. كل ما استطعت سماعه كان صوت ضربات قلبي وصوت أجنحة الذباب وصوت الماء عندما ترمي سمكة ما بنفسها خارج الماء وتعود إليه. أنا لا أكره الناس لكنني أشعر بحال أفضل بين النباتات والحيوانات البرية. فبعد أن أدخل مخبأي النهري، لا يمكن لشيء سيئ أن يحدث لي.

يجري أحد تفرعات نهر أونا "أونادزيك"، بالقرب من منزل جدتي المائل، الذي كان يغرق شيئاً فشيئاً في الرواسب الرملية التي جلبتها مياه النهر الهائجة بفعل طوفانات شهر نيسان القوية.

كان قاع النهر عبارة عن أحجار التوفا المسامية التي تغطيها الطحالب المائية. تظهر من رماله الصفراء الأصداف والأنقليس الذي يتلوّى بحيوية. كنا نصطاد الأنقليسات في القاع المغطى بالحجارة مستخدمين الشوكة ونضعها في مرطبانات زجاجية كبيرة كي يتسنى لنا مشاهدة أجسادها اللزجة العجيبة.

في بعض الأماكن، يمكن أن ترى موقد خشب أو غسالة صدئة أو أوعية مهترئة أو أجزاء من سيارة قديمة في قعر "الثقب الأخضر"؛ المصطلح الذي كنا نطلقه على البرك الخضراء العميقة في النهر. كانت

المياه صافية جداً لدرجة أنه يمكن رؤية قطعة نقدية في عمق عدة أمتار محاكية قرص الشمس.

كان لكل منزل نظام صرف صحيّ خاص به حيث تخرج فضلاته إلى النهر عبر أنبوب. عندما ينخفض منسوب المياه في الصيف تظهر الأرض الإسمنتية على شكل تماسيح حيث يقذف بين الحين والآخر فضلات ومياه الغسالات. هناك تتجمع الأسماك لتقتات على ما لم يستطع البشر هضمه.

كان الصيادون يقفون على أكوام الخردوات تلك ويرمون صنانيرهم المزودة بطعم مكون من دود وخبز. كانوا يستخدمون ذبابات الطُعم المصنوعة يدوياً مدهونة بالزيت الخاص (لتمنع الريش المزيف من الغرق) لإغراء سمك البربوط الذي يُدفع إلى الضفة جنباً إلى جنب مع طواف الصنارة. تتقلب السمكة الكبيرة على بقعة مليئة بنبات القراص، عاقدة الخيط الرفيع وجميع ذبابات الطعم الأخرى على الخيط الرئيسي، الذي كان يمرّ عبر حلقة الصنارة الخزفية إلى أن يصل إلى البكرة اللماعة من ماركة Shakespeare أو ماركة D.A.M Quick.

كانت أسماك ذات البق الحمراء والسوداء تسبح في دوامات أمام الصخور أو فوق إحدى حجارة التوفا، أقرب إلى ضفة النهر وتصدر أصواتاً عالية إثر قفزها من الماء لتبتلع حشرات اليعسوب التي سقطت في الماء فجراً. شكلت قفزاتها حلقات مرتّحة تتبدد شيئاً فشيئاً على سطح الماء مثل حلقات الدخان المنبعث من شقة مغلقة لأحد العزاب. بحلول المساء، يحوم اليعسوب فوق الأونادزيك: بذكوره الزرقاء وإناثه الخضراء وأحصنة البحر فيغني النهر معزوفته الليلية الحالمة على إيقاع تغريد العندليب ونعيق البوم.

الخريف، الخيّال الآتي من الشمال

في نهاية شهر آب من كل عام تنتشر الأعشاب ذات الأزهار الزرق، في حديقة جدتي التي تنحدر قليلاً نحو ضفة النهر الرملية. لم أكن أعرف اسمها، لكنني كنت أدعوها الوحيدات الزرق، لأنها تبدأ بالإزهار بخجل في شهر حزيران، لكن شهر آب كان الشهر الذي تتفتح فيه وتبدو بأبهى حلة لها.

وقتها يشوي الجزار لحم خاصرة العجل
ذلك الجزار ذي اليدين القويتين والوجنتان الحمراوان
شحنة عبر العشب مع جنود القصدير
تنتج مفاجآت كيندر مقاتلي فايكينغ برونزية اللون.

كانت الوحيدات الزرق تتغذى على الدماء التي يقذفها أنبوب صرف الجزار إلى منتصف الضفة؛ كان الدم يقطر بهدوء نحو الماء.

كانت المنازل تنظر بتيقظ دائم أبدي إلى ضفة النهر، وتراقب حقول الذرة عند الضفة الأخرى. بينما يحلم قاطنو المنازل أحلاماً أكثر عصرية يحلمون بالقروض، وساعات سويسرية وكرات قدم. ولكن في المساء، تنقلب الآية فبدل أن تراقب المنازل النهر وأسماكه والحقول، تعبر الأسماك إلى المنازل، وتحول في الغرف، وتراقب

السكان المقيمين في المنازل المشيدة على ضفة نهر أونا، فيمكنك أن تتخيل أسماكاً تقف على جباه الصيادين تباركهم؛ تدخل تلك الأسماك، نظيفة ونحيلة بذيولها اللمّاعة إلى عقول الناس.

الصيادون الحقيقيون يصطادون الأسماك لأنه ليست هناك من طريقة أخرى للتعبير لها عن إعجابهم بها. حتى إن بعضهم يقبّل السمكة قبل أن يردّها إلى الماء.

مكتبة

ولكن كسنة أبدية، يعقب الفجر الليل محطماً اللعنة التي قلبت نواميس الحياة، فتبزغ الشمس من خلف النهر مستحوذة على شرفات المنازل، فتطرد الأبخرة – المنبعثة من ماء النهر الذي دفأته الشمس – الضباب، وتعود الأسماك الغريبة إلى مهدها النهري ويستيقظ الناس وتستقيم نواميس الحياة مجدداً، ويتكرر المشهد يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة والأزل ينتظر الأبد فاتحاً ذراعيه.

بتلات تلك الأزهار الزرق متباعدة عن بعضها كما أسنان عمر الشريف الأمامية، لذا تبدو مثل المروحة. كانت كثافة اللون الأزرق في تلك البتلات مذهلة، ولكنه كان يتلاشى شيئاً فشيئاً، منتظراً أن يجهّز فصل الخريف آلاته الموسيقية استعداداً لعزف مقطوعات الظلام والمطر. من الصعب ألا أحب الرطوبة-- روح التراب، المادة التي شُكّلنا منها. في الحقيقة، لم أصدق أنّ طيفاً من هذا الإزرقاق قد يكون موجوداً في الطبيعة. واعتقدتُ بسذاجة أن صباغاً ما تسلل في الليل عبر الضباب، وصبغ الأزهار بهذا اللون، وربما قامت بالمهمة يعسوبة تحمل وجه إنسان، أو مهرج استبدل الشعر على رأسه بسنابل قمح وربما هو إله الاخضرار والنمو، الذي لن نراه أبداً.

لن أفشي سراً إن قلت إن النباتات هي أعظم أسرار العالم، سلالة حاكمة من اليخضور، لا تؤمن بالحياة ما بعد الموت، والتي عندما تحين الساعة الموعودة ستكون قد غطت العالم بأكمله. النباتات عبارة عن لبّ غضّ، لن تستطيع استخلاصه إلاّ يدوياً لتعلق العصائر خضراء اللون على راحتيك، تلك العصائر هي دمها الذي لا تقيم له وزناً وتقدمه بوفرة لأنها كانت أبدية ولا تُقهر في أيام الربيع.

مع تلاشي الاخضرار اللمّاع للأعشاب، يتكثف لون الأزهار الزرق، معلناً النصر المتأخر للأزهار الزرق. يموت الصيف في المنطقة المحيطة بنهر أونا، بقدوم الضباب الصباحي البارد، وبرودة الأماسي والشمس المتقلبة التي تكون شبه دافئة فقط في ذروتها.

يهجم الخريف على هضبتي التوسيل والكولايفاك - كحشود المغول - التي يجري عند سفحيهما نهر كرونسيكا بطول ستة كيلومترات جالباً معه برودة بحر برينغ. أمام هذا الهجوم البارد لا فرصة للنباتات على الصمود، فقدوم الخريف يلون شلالات المياه بلون أوراق الأشجار المتساقطة، والمياه الجارية عبر غابات هضبة التوسيل تنقل معها الهمهمة الكئيبة لتلك الأوراق، ويدخل الخريف صدورنا عبر الهواء لنستخلصه كمشاعر نقية سببت لنا الغصّات وملأت أعيننا بالحزن الصبياني.

ومتى ما شعرت بالحزن أبدأ بقراءة الكتب عن الممالك السحرية استعداداً للشتاء الآتي، منتظراً الأرض لتتلقف هبة الثلج، ليتسنى لها أن تستعد مجدداً لإفساح المجال لبراعم الأزهار؛ تلك الأبواق التي ما أخلفت الموعد موسماً لتعلن عن اختلاجات ربيع آتٍ بمسرة سحرية.

هذا أنا: أنا ملك أوراق الأشجار
أنا نقيض الخيّال المغطى بالطحالب
ستشعر بـــي الحبيبات الموجودة تحت الثلج
وستحملني الإوزات على أجنحتها.

النمو مع النباتات

أخذت حمام شمس صيفياً خلف مدرج ملعب متيور لكرة القدم، بينما كنت أمشي بخفة على طول الطريق المفروشة بالحصى، قاصداً أجاك أحد أفرع نهر أونا الصغيرة الذي يجري تحت جسر سكة الحديد ليجتمع بفرع كرونسينكا. كنا نسبح بين الأجمات الخضراء التي تتوسط النهر بينما تركت السكك التي تتوسط الجسر في القسم التالي من النهر لتتشمس. كانت المياه تعج بأسماك الشبّوط والسلمون البني. وذات مرة كدت أغرق بالقرب من إحدى الأجمات، والغريب أن تجربة الغرق والموت الموشك عززت حبّ الماء في نفسي.

ابتعدت الغيوم الرعدية المحمّلة بالرطوبة في السماء مثل مشهد مسرّع من وثائقي عن تقدّم العالم الحيّ. فبدأتُ أركض بينما يقطر العرق من جسدي مثل دموع الأم. التصق قميصي الأبيض بجسدي. قفزت مستمتعاً بشعور الحرية الذي ملأ قلبي وانتشر في عروقي.. وكأنني دلفين يمشي على اليابسة أو سنجاب يطير في الفضاء أو طائر فلامينغو يمشي على أرض موحلة تنبعث منها رائحة النقاء.

سيطر شعور الحرية على عقلي وأثقلني بقطرات المطر، كنت أتوقف بالقرب من كل وردة تنثر رحيقها، وأربت على أوراق نبات لسان الحمل وأمرر أصابعي على سنابل الشعير وأتأمل التلال التي يتصاعد منها دفء الشمس. ويا له من تصاعد!

ظننت أنني أستطيع الطيران بفرح، كما في الحلم، عندما أنهض من وضعية الجلوس، وببساطة ألوّح كفيّ المفتوحين بدلاً من الأجنحة، ولا ألبث أن أرتفع عن الأرض. أحوم فوق رؤوس الأشجار وأسطح المنازل التي أعرفها، وأبقى دائماً قريباً من الأرض على أمل هبوط سلس عندما تزول لحظة السحر تلك.

لكن ذلك كان مجرد حلم يقظة، رؤية على جزيرة النهر تحت السماء الماطرة. لم أستطع ولو للحظة أن أتوقع ما يمكن حدوثه بينما أحدق إلى التفرعات على ورقة الأشجار التي لا تزال خضراء وقد مزقتها الرياح؛ ولا عندما لامست بأصابعي ذيل سمكة البربوط اللزج، أو عندما عجنت بيدي كُتلة من الطين الأحمر من هضبة هام هيل. وكما قلت سابقاً، لم يكن من دليل على ما تحمله الأيام القادمة. كان عام الحرب، 1992، بعيداً.

كنت قد اقتربت من مقابلة الفادي سميث، لكنه تملّص مني في كل مرة واختبأ وراء ستار من أوراق الأشجار، أو هرب إلى ظل شجرة الصفصاف قرب النهر، أو قفز إلى الماء وسبح إلى الجهة المقابلة. وعندما يأخذ شكل ثعبان العشب، مخترقاً سطح الماء إلى نصفين مثل سحّاب كبير يهدد بسكب العالم بأجمعه، حينها تكون السباحة عديمة الجدوى، لأنه سيكون على الضفة المقابلة، يخطو بسرعة شخص عائد إلى المنزل في المساء، تاركاً وراءه آثار رائحة مرهم واقٍ من الشمس من ماركة سولي ورائحة جعة.

بسرعة نسيت ما كنت منكباً على التفكير به، وما بدأت البحث عنه، وقفت على حافة الضفة الشاهقة، بينما كانت أفواج السمك تسبح حول الأجمات أسفل قدمي. كانت من النوع الأبيض الذي لم

telegram @ktabpdf
مكتبة ٣٦٢

يكن يكبر لأكثر من 10سم، لذا كان طُعماً جيداً للساعين وراء سمك السلمون. أحياناً أشعر بالسوء عندما التقطها لأنها أسماك جميلة جـــداً. مثالية وحساسة. أمسكت. الفادي سميث من تلابيبه، فوقف. جذبته نحوي حيث كنا واقفين، وجهاً لوجه تفصل بيننا مسافة تدل علـــى الاحترام، ثم سألته أسئلة عن المستقبل.

أين ستختفي الكتب التي أضعها على تلفازي من نوع غروندنغ؟

ماذا سيحصل للتلفاز وجهاز التحكم الرقميّ؟

أين ستختفي مئات أشرطة التسجيل الأصلية الموضـــوعة علـــى الكتب؟

ما الذي سيحل بجميع الرسائل؟ رسائل الحب والرسائل الهامشية؟

ما الذي سيحل بمجموعتي من القطع النقدية بالإضافة إلى عملة فلورين الذهبية المنقوش عليها فرانز جوزيف، والعملة النحاسية منـــذ عام 1676 المنقوشة عليها كلمة soldo التي ثُقبت ليضـــعها أحـــدهم كقلادة حول عنقه لجلب الحظ؟

لماذا لن يبقى في شقتنا سوى الجدران والثقوب حيث كانـــت المقابس والمرحاض؟

من سيسرق كلّ صوري؟ وعلى أي كومة نفايات سأراها تلمع مثل أوراق الخريف؟

من سيقرأ نسختي من رواية فونكو فيلياسيتش عـــن الصبـــــي الذي يسافر عبر الفضاء؟

من سيأخذ جهاز الإســـقاط الســـينمائي Super 8 وأشـــرطة التسجيلات الموجودة في الصناديق الكرتونية وعليها ملصقات الأفلام والإهداءات على الغلاف؟

ماذا سيحل بأفلام حروب العالم بالأبيض والأسود؟

من سيخفي ببساطة أثاث شقتنا؟

من سيفرّط بتاريخ عائلتنا وسيجعلني أعتقد بالماضي على أنه تجمّعات لأشباح لطيفة؟

هل لي أن ألوم أحداً؟ ومن لي أن أتّهم؟

ولكن، كما قلت، كانت سنة 1992 بعيدة آنذاك. لم يكن هناك داعٍ لتلك الأسئلة للمستقبل القريب، لأننا كنا لانزال في ماضٍ في منتصف الثمانينات السعيدة

في أيام الصيف، زُرعت الذرة الصغيرة في الحقول الرملية. أوراقها حادة لدرجة أنها قد تجرح، وعندما يهطل المطر منظفاً التربة من الجذور العقدية ستهتز الشتلات، فتتشكل شبكة من الأملاح المعدنية والماء لتغذي الغطاء الأخضر. حفرت الصراصير المدرّعة أنفاقاً بين الشتول، عابثة بتماسك التربة ومخلخلة المسامات. لقد اعتاد الصيادون التقاط تلك الصراصير وحشرها في مرطبانات مغشّاة، لأنها كانت طعماً شهياً لأسماك الشبّوط الكبيرة.

فجأة، انتهى وابل المطر، مخلّفاً أقواس قزح في السماء التي غسلتها الأمطار. بدا الهواء منعشاً لأن تنفس النباتات تحسن. رأيتها تنمو أمام عينيّ. فاحت رائحة الشهوة من أول درب عشبيّ، عبير النشوة وشغف قبلة مصاص الدماء. هكذا نضجت أفكاري بين النباتات، ومن دون سابق تصميم كتبت التالي:

النهر محاصر بالأمطار

يغرق بحّر مزهواً تحت حجارة التوفا

وتهمس أرواح الصراصير لأذنه:

إن الأسى ما يعرّفنا.

لا إحياء ولا موت

لم تكن كلمة احتقار معبرة كفاية. لم يفعل الولد لي شيئاً، لكنني لم أكن أطيقه. أثار مظهره غضبي، بالرغم من أن الطيبة بدت عليه، لكنني لم أنتبه إلى هذا التفصيل. كان ذلك المخبول ورأسه البشع الكبير، أحد أبناء سلالة آل هودزيك، التي عاشت في ضواحي زيتارنيكا في بيوت كلسية. كان لدى دينو رأس يشبه البالون كروي الشكل ممسوخ مثل إحدى الكرات البلاستيكية التي تبتاعها من أحد محال جوغوبلاستيكا بثمن بخس. كان ذلك الرأس ملتصقاً بجذع نحيل وساقين طويلتين وذراعين تشبهان قرون استشعار الحشرات. وبحالته تلك، لم يستقطب أي استعطاف بسبب نظرة الخبث التي كنت أتخيلها في بعض الأحيان مرتسمة على وجهه. لم يكن يشارك بأي ألعاب مع الأطفال وكان هادئاً ومنزوياً، ربما بسبب التربية المتزمتة التي تلقاها من آسيم، المسن، فادي طيور الحمام، فقد كان يحبها أكثر من أي مخلوق آخر.

كان لدى الجد آسيم، كبير العائلة، شعر فضيّ اللون، وكان يقصد الساحة الإسمنتية كل صباح ومعه قبضة من فتات الخبز لطيور الحمام. كان يناديها دائماً محاكياً أصواتها ليجذبها إليه، فتطير نحوه بإخلاص، من الأسطح النظيفة إلى الأرض إلى أن تحط على رأسه وكتفيه وذراعيه اللتين كان يمدهما جانباً وكأنه فادي الحمام

أو يسوعها إلى أن تغطيه الطيور بالكامل وتنعكس أشعة الشمس على ريش أعناقها عاكسة درجة من اللون الأرجواني. عندما يمشي آسيم، لم تكن الحمامات تطير، بل تفتح أجنحتها متوازنة لتظهر تقديرها له. ملأ هديلها المبتهج هواء زيتارنيكا تحت منحدر هضبة هام هيل، هضبة طفولتنا المبجلة. بُنيت دورة مياه عامّة عند الجرف الصخري. كانت ملجأ مغطىً بنبات اللبلاب، ونبات بنيّ مع عروق من اللبلاب، حيث انتشر فقاعات غاز الأمونيا من الأرض وتكوم البراز بين الأوراق الخضراء. كل ذلك عنى شيئاً واحداً وهو أن السكارى والعشاق كانوا يتقابلون هناك، أولئك الغافلون عن روائح الفضلات البشرية، كانت هناك مواقف خاصة بسكان الأبنية القريبة، أمام دورة المياه، وبعدهما انتصب برجان كهربائيان طويلان.

إطعام ذاك الرجل اليوميّ لطيور الحمام، ساعده على جمع ما يكفي للحصول على الوقود النجمي الذي يحتاج إليه للوصول إلى الجنة بين الحوريات، ذوات الجمال السماوي. كان كبيراً جداً في السن لدرجة أن جلده كان يشبه القطن وكانت تتخلله في بعض الأماكن بقع زهرية. لقد أوحى جسده أنه سيتخطى الجاذبية في أي لحظة، وكأنه بخفة ريشة تعود لجناح أحد الملائكة، مذكراً بالأوقات التي كان الناس فيها يخالطون الملائكة.

ذات صباح، ذهبت إلى منزل جدتي ديلفا، وجلست على الدرجات، ونظرت إلى النباتات المتوسطية في الأحواض المخصصة لها، والتي كانت جدتي ترشها بالماء البارد في الساعة السادسة من كل صباح، قبل أن تنشر الشمس أشعتها. فاحت من الأعشاب رائحة

قوية، وبعيداً عن الأرض الإسمنتية، نمت شتلات طويلة شبيهة بنبات البامبو، التي كانت مفرغة من الداخل لكن غلافها الأخضر القوي كان مقاوماً للكسر.

رأيت بين سيقان البامبو رأساً يشبه البالون يسير حول برج الكهرباء، حيث يوجد برميل مهترئ مليء بالطحالب.

مدفوعاً بالفضول، ركضت نحوه. ورأيت أن غريب الأطوار قد رمى عدة قطط صغيرة لتغرق ببطء في البحيرة الخضراء العكرة. شعرت بقوة يدي وكأن هناك عصاً سوداء بها، لكمته على معدته لأنه كان نحيلاً في تلك المنطقة، فأطلق ساقيه للريح مبتعداً. أخرجت القطط من الماء ووضعتها على العشب. كانت تبدو نحيلة وفروها ملبّد ورطب يلمع بعد أن لعقتها ألسنة الموت. نقلتها حيث العشب الكثيف، بالقرب من برج الكهرباء، آملاً أن تجدها أمها وأن تحييها بدفئها. لكن لم أجد سوى التراب بينما كنت أقف مشدوهاً فوق أجسادها الصغيرة شبه الميتة وأعينها المفتوحة.

أغمضت عيني بأسى وأردت أن أرى المسن آسيم فادي طيور الحمام، ليحيي القطط ويحلّق إلى أعلى هضبة هام ليرمي الصواعق الرعدية بغضب. كان يصرخ بصلوات سلوفاكية قديمة بصوت مريع ويستدعي طيور الغراب السوداء من الغيوم لينزل القصاص بالأشرار من بني البشر. لكن ذلك لم يكن كافياً ليعيد القطط من الموت. فمن يموت على هذه الأرض، يموت إلى الأبد. فهل ستذهب القطط الميتة بفروها الكثيف إلى النعيم.

كان آسيم المسن الوحيد الذي يرفض أن يموت، مستلقياً بغرفته البيضاء الأشبه بالفضاء. أصبح في ساعة موته أبيض وكأنه مغطىً

بأول موجات صقيع الشتاء. كان بؤبؤاه أبيضان بياض الثلج، وكأنهما رأسا دبوسيّ أحد الخياطين. من تحت الملاءة بدا وكأنه تحول إلى قنديل بحر قطني قبل أن ينطلق من النافذة مقلّصاً وراخياً جسده، وبعد برهة، تعلّق في الهواء فوق جلبة الشوارع قبل أن يختفي تماماً بمواكبة من أسراب الحمام البيضاء، بعيداً عن الطين والديديان، بعيداً عن القطط والناس.

التقاط سمكة

"البلغارية!!".

كان لتلك الصرخة هيبة ما. سكنت البلغارية المسنة أطلال منزل مبنيّ منذ أيام الإمبراطورية النمساوية المجرية على ضفة الأونادزيك الذي تسبب بصنع ثقب أخضر عميق، ثم تابع جريانه زبداً عبر قناة حجرية ضيقة تحت الجسر الخشبيّ والمسلخ القديم. عاشت البلغارية وحدها في ذلك المنزل الكبير الذي فتتت الرطوبة واجهته. كان منزلها محاطاً ببساتين ذات أعشاب طويلة متمايلة لقد اعتدنا الركض عبر الأعشاب بحثاً عن التفاح الناضج. نالت تلك المرأة كنيتها بسبب زواجها من رجل يزعم الناس أنه من بلغاريا. حتى ذلك الثقب الأخضر، الذي لا يبعد سوى بضعة أمتار عن منزل تلك المرأة، كان يُسمى تيماً بها.

كان ثقب البلغاريّة الأخضر مأوًى لأسماك الشبّوط والبربيس والسلمون الصغير والكبير. هناك كانت أغصان أشجار الصفصاف المنحنية تلامس الماء، حيث تربصت أسماك السلمون تحتها لكي تقفز وتلتقط الذبابات التي تطفو على سطح الماء هناك، وكانت أسماك الكراكي تدنو من الضفة حيث نحن منتظرة أسراب الأسماك الصغيرة. وكان القاع رملياً ولزجاً بفعل أوراق الأشجار والغصينات المتكسرة المهترئة. إن صدف ودست على تلك الرواسب، سرعان ما سيتشكّل

عمود من فقاعات الهواء وصباغ أسود ناتج عن الأخشاب المتخمرة يصل إلى سطح الماء. وكانت بقايا أعضاء العجول في كل مكان، من جماجم إلى عظام الكتف وكل ما كان الجزار يرميه في النهر من فوق الجسر الخشبي. وكادت جماجم العجول تصبح جزءاً من الحجارة المشكلة للقاع، اختبأت ديدان صفراء صغيرة داخل قواقع مكونة من الرمل وكسرات الخشب. أولاً، تمسك الدودة من قرني الاستشعار على رأسها البني ثم تسحبها من قوقعتها. عندما تخرجها تبدأ بالتلّوي مثل الطفل المولود حديثاً محاولة الهروب من يدك. كنا نضعها في علب اللبن أو مرطبانات مليئة بالماء لكي تبقى حيّة. ثم يتم إدخال خطّاف في رأسها خصيصاً، لأن أجساد تلك الديدان كان تنزّ وتتورم إذا ما جُرحت. تلك الديدان كانت تساوي ذهباً بالنسبة إلى الصيادين، و لم يكن سوى للمختصين الشغوفين يعرفون أين يجدونها. كانت تلك الديدان يرقة في مراحل حياة ذبابة القمص. كنا نطلق عليهم أيضاً اسم "زهرات الماء" أو "اليعسوب الزائل" لأنه حين تتحول إلى ذبابة ناضجة ذات أجنحة بعد سنة أو اثنتين من مرورها في مرحلة اليرقة تحت الماء، تشق طريقها الوعر إلى سطح الماء، لكنها لا تعيش سوى ليوم واحداً بعد ذلك.

ذات يوم، التقطت وصديقي سِيد سمكة كراكي كبيرة جداً بالقرب من منزل البلغاريّة. كنا نلقي خيط الصنارة مرات ومرات، ونسحب الطعم بإتقان عبر الماء. التقط طُعم سيد شيئاً ما وبعد صراع لم يدم طويلاً، سحب سمكة كراكي تزن كيلوغرامين إلى الضفة الرملية، حيث كنت أقفز بفرح. كم كان مشوقاً لرؤية سمكة تفتح فكّيها الأبيضين لتلتقط الطعم. لمع ذاك المخلوق في الماء، وأدار بطنه

الفضي نحو سطح الماء، وبعدها حاول أن يتخلص من الطعم في فمه بأن يهز رأسه بقوة من جهة لأخرى، بجمال. مالت قصبة الصنارة بفعل وزن السمكة مشكّلة بانحنائها نصف دائرة.

بينما كنت أحاول تخليص الخطّاف ثلاثيّ الرؤوس من فكّ السمكة السفلي، عضتني فجرحت ظهر راحتي. كان حجم رأس سمكة الكراكي ضعفي حجم قبضتي. مدفوعاً بالخوف والألم، ضربتها عدّة مرات على رأسها، وكان ذلك ضرباً من الغباء لأن زعانفها كانت حادة بدورها. عند الغروب عدنا إلى المنزل مع تلك السمكة الكبيرة فرحين رغم أنني كنت مبتلاً وجائعاً. سطع القمر بين الأغصان فوق النهر، مباركاً غنى وصفاء الماء.

ملأ صوت أجنحة البط الهواء العابق بعبير النهر. كان عليّ النوم وانتظار الفجر لأنشر قصتي عن مغامرة الصيد المذهلة التب خضتها عند الثقب الأخضر قرب منزل البلغارية.

أمير أونا والتنين وإعادة الإعمار

"تساقطت الأوراق، وهي تطوف الآن ميتة على امتداد مجـــرى الأونادزيك". هذا ما كتبته بالاقتضاب الذي يســـتخدمه المـــؤرّخ. أعدت قراءة ما كتبت، ولاحظت العالم الطبيعي، وسجّلت التغيرات المجهرية لضفة النهر والمياه والأشجار عندما أفسحت ستارة الخريـــف الماطرة، المجال لسكون الشتاء. كنت أحياناً أسير من منزل جدتي أمينة على طول مجرى النهر، من دون سبب محدد، سوى رؤية كيف تجري الأمور.

أولاً، كنت أتوقف عند ثقبنا الأخضر وأنظر إلى أن أجد أسماك البربوط؛ أما بالقرب من المياه الضحلة، فكانت أسماك السلمون تنتظر، وبعدها كانت الشلالات التي كان يوجد تحتها ثقب أخضر آخـــر، حيث توجد أسماك السلمون الصغيرة، وبعدها كان بساط من الرمال وحجارة التوفا، حيث كانت أسماك الشبّوط تراقب منزل ميتا، لاحقاً في مجرى النهر، كانت أنواع الأسماك مختلطة، وقبيل الجســـر بقليـــل، كانت أسماك البربيس الفتية ذات البطون الذهبية تسيطر على المكـــان، متعلقة بحصى القاع. كنت قادراً على أن أميّز وأفرّق بـــين أنـــواع الأسماك من ملامحها. كان ظهور نوع سمك جديد في العـــالم المـــائيّ للأونادزيك يستفز شغف الملاحظة لديّ، أو بكلمات أخرى، هوسي بالأسماك، الذي لم يتطلب تفسيراً منطقياً.

كانت أوراق الأشجار تغرق في النهاية إلى قعر النهر مثل الأسماك المتحللة وتصبح جزءاً من النهر. وعندها تصبح المياه ذات اللون الأزرق المخضرّ شفافة، معلنة قدوم الشتاء البارد والطويل، عندها ينجرف السمك الأبيض من الأونادزيك إلى أفرع أعمق في نهر أونا، بينما تبقى أسماك البربوط والسلمون الصغير والكبير. في ذلك الوقت يتوقف الذباب عن السقوط على سطح الماء، فلا يبقى لأسماك البربوط سوى فتات الخبز بين الأعشاب المائية لتقتات عليه. يجوب السلمون الصغير والكبير المياه جائعاً بحثاً عن الأسماك الصغيرة وحينها تبدو الهمجية على سلوك السلمون. قانوناً يمنع صيد أسماك السلمون الصغير طوال الشتاء حتى شهر نيسان. "السلمون الصغير" هو الاسم الذي أطلقناه على السلمون الفتيّ، فهو يبقى محمياً حتى يصل طوله إلى 80سم، ومع ذلك، قلة قليلة التزمت بهذا القانون. السلمون الصغير هو سمك سريع وطويل فضي اللون ببضعة بقع سوداء على الظهور والذيول، أما البطون فتكون ناصعة البياض، أما الرؤوس فتكون أدكن، السلمون أشهر أنواع الأسماك وينقضّ على أي شيء يتحرك في الماء. ولم يكن يتغلب على نهم السلمون الصغير سوى سمك البربوط، فمن المعروف أنه قادر على أن يسحب بطة كما أنه يقتات على الضفادع والإوز الذي بدوره يقتات على الأسماك الصغيرة.

جوف أسماك السلمون كبير جداً. ففي أواخر الخريف وفي الشتاء يكون من السهل صيدها بطعم ليس سوى ملعقة فضية، أو بإناث الفراشات مع لصاقة مضيئة تجذبها بومضها عند رميها بالماء. يعتقد الصيادون أنه من الخطيئة اصطياد السمك في تلك الفترة، لأنها تكون متأثرة بجوعها وقد تسعى وراء أيّ طعم دون تمييز، لكن

السبب الرئيسي لظنهم هذا هو أن السلمون الصغير ليس سوى مرحلة انتقالية في تشكيل ملكة الشلالات، سمكة سلمون أونا، التي من الممكن أن يصل وزنها إلى 25كلغ. في أكثر من مرة رأيت أسماك تزن 10كغ، لكنني لم أرد حقاً أن أجد سمكة كبيرة جداً في الصيف، وجهاً لوجه، بينما أسبح في الثقب الأخضر العميق الذي شكلته ضربات الشلالات.

السلمون الصغير هو أمير نهر أونا، واصطياده يكون علامة بداية الشتاء، الذي يغطي ضفاف النهر بالثلج والجليد. حينها يكون النهر بغاية الجمال لأنه يكون مزيناً مثل شجرة الميلاد. تكون الضفاف محاطة بأشكال من الجليد مغطية أغصان أشجار الصفصاف لتنحني صوب سطح الماء. يذوب الجليد ماءً أثناء النهار، فتعود الأغصان التي تحوّل لون لحائها إلى لون أحمر شتويّ للحياة لفترة قصيرة، ولكن مع غروب الشمس، يعود الجليد ليمسك بزمام الأمور مرة أخرى.

ذات مرة في الثلاثينيات هطل الثلج بكثافة على الأشجار عند الضفة المقابلة لمنزل جدتي، لدرجة بدت الضفة ككومة طويلة من الثلج. يُقال إن الأونادزيك تجمد يومها، وأصبح يشبه أحد الأنهار السيبيرية، حتى إنه قيل أن قطيعاً كاملاً من الأحصنة كان بإمكانه أن يمشي عليه ويجرّ خلفه مزلاجات مليئة بالأولاد. وقيل أيضاً أن تنانين النهر عاشت قديماً في كهوف شكّلتها المياه المرتطمة في حجارة التوفا في الأعماق الساحقة. منذ عدة قرون اختفت التنانين واستعاد الناس سلطتهم على الماء، ربما لاتزال التنانين مختبئة في الكهوف، وبالكاد تخرج طائرة من الماء عند اكتمال القمر، مغطية النهر بالحراشف المشعّة. لكن كفانا من تلك القصص.

كان الثلج والجليد يتكومان في طبقة سميكة على سطح منـــزل جدتي، وتفوح من العلّية رائحة الغبار، وبيـــوت العناكـــب تغطـــي الأغراض المرمية، وأرضية الطابق العلويّ تصدر صـــريراً، وكانـــت السلالم في الممر القصير منحدرة جداً بحيث يجب على المرء أن يأخذ حذره كي لا تزل قدمه. وكان يوجد علـــى الجوانـــب مســـاحات طولانية حيث كان حذاء جدتي القديم قابع على جريدة وصـــندوق مسحوق الغسيل. عندما يحلّ المساء، كنت أحبس نفســـي كـــي لا أوقظ الآخرين في المنزل، وكنت أجلس بالقرب من المذياع، وعندما أدير القرص يساراً، كانت تأتي المحطة التي تضع أسماء المدن. كنـــت أتحمّس عندما يُذاع اسم مدينة غربية: "ديلفت" (أراهنك أنها مـــوطن الأقزام ذوي الأردية الخضراء.) أنا متأكد أنني قادر علـــى أن أرســـم رسماً تشبيهياً للمنزل والمدينة بأدق التفاصيل، لكن يجب عليّ أن أكون دقيقاً ومتحفّظاً، لو أنني مؤرخ لعصر غابر.

آلهة النهر

عندما يغضب الماء كان يرتفع ويتلون بلون الشوكولا بالحليب، وكان الدوامات تتشكل في نهاية المجرى، ويمكن لنظرة واحدة على تلك الدوامات أن تبعث بنفس الناظر رهبة الفيضانات عديمة الرحمة، خوفاً من الغرق فيها والعودة إلى الضفة كجثة هامدة. لا أحد يحب ذلك اللون لأن جميع سكان أونا يحتقرون أنهار المدينة المسطحة، بمياهها العكرة.

كنا نقول متسائلين بازدراء عن الأنهار السفلية: "ما هذا النهر الذي لا تستطيع رؤية قعره؟".

ونتابع الحديث بينما نحاول استنباط إيقاع دفقات النهر الكسولة: "لا بدّ وأنّ هناك سرّاً غامضاً قابعاً في الأعماق".

عادة تأتي الفيضانات في الربيع، عندما يبدأ الثلج المكوّم المحيط بالتلال بالذوبان، وتبدأ المياه بالجريان سريعاً، جالبة أكوام الطين والأغصان صغيرها وكبيرها وأوراق الأشجار وجيف الحيوانات.

ويسأل أحد الصيادين: "هل النهر مرتفع؟"

فيجيبه أحدهم: "أجل، إنه موحل لدرجة أنك تستطيع إزالة الطين بالمجرفة".

النهر مرتفع هو المصطلح المحليّ للفيضان العنيف الذي يفيضه أونا مرة كل عام، حين تكون أعين الجميع مثبتة على مستوى الماء

برغبة واحدة وهي أن تعود المياه لمستوياتها الطبيعية وأن تستعيد لونها، الذي يصعب وصفه. عندما كان يهبط مستوى الماء، كانت لونه يتغير، ويصبح بنياً مائلاً إلى الصفار، قبل أن يتحول إلى الأصفر الممشّح بالأخضر إلى أن يثبت على اللون الأخضر في الأيام التي تطل سنابل القمح برؤوسها من تحت الثلج الذي تذيبه شمس آذار.

للنهر آلهته هو أيضاً: آلهة العمق وآلهة القوّة وآلهة السرعة وآلهة اللون. أحبها على قلبي هو إله اللون، مراوغ العين البشرية التي تعشقه وتعبده في كل رمشة- إله مبهج وذكي، يبدّل زيّه ليطابق لون النهر والسماء فوقه. السمك الصغير هو أكثر ما يستمتع به لأنه يغوص عبره وغالباً ما يعتبره حامياً له يتيح له الاختباء من المفترسات. هذا الإله نبيل وخيّر، وكان يُدعى "بينت" في زمن إيليريا، تسمية أخرى للإله الروماني "نيبتون".

لا أحد ينحدر من المناطق المحيطة بأونا ولا يكون قادراً على التأمل بالنهر لساعات. عندما أنظر إلى الماء أنسى وجودي، وأشعر بالخفّة، وكأنني كائن مسلوب الإرادة. تقول الأساطير إن الجنود الرومانيين هم من أطلق على النهر اسمه الحالي، عندما وصلوا إلى ضفافه وتوقفوا اندهاشاً بالماء المجهول: أسموه أونا؛ الأول والأخير. لكنني أفضّل أن أفكر بأنه سُمي هكذا منذ نشأة الكون، منذ أن بدأ جريانه للمرة الأولى، عندما تكلمت العصافير والأسماك مع العشب واستمعت إلى همهمة "البينت" الهادئة.

التطهير المائي

كم أحببت المطر عندما يصفع صفحة ماء النهر، وكيف ترتطم كل قطرة بالسطح فتردها إلى الأعلى بما يشبه النافورة. تتقافز آلاف حبات المطر على سطح النهر، فتشكل منها دائرة صغيرة تشبه لوهلة زهرة زنبق الماء.

"تهطل من الأعلى ومن الأسفل". هذا ما قالته الجدة أمينة وهي تنظف مجمرة الموقد بالملقط.

يمكن للمطر إذا ما هطل بقوة وغزارة، ولو لفترة قصيرة، أن يجعل الضفة الأخرى تختفي تماماً أمام عينيك. بعد دقائق قليلة من انهمار المطر، يُغطى النهر بستارة بيضاء ضبابية، فتختفي أوراق شجرة الصفصاف بين الضباب فوق النهر، لكنني أعلم أنه ما إن يتلاشى الضباب، سيبدأ الخَضَار بالظهور في كل الاتجاهات.

في مطبخ جدتي، تفوح رائحة البراءة والدفء من قطع جذور الراسن الموجود على المدفأة. ومنه أرى كيف يتّخذ أونا الطيف الأصفر الفاهي ويجري به على طول الضفة، مشبع بالطين الأصفر.

يسود الهدوء لبرهة بعد توقف الهطول، ربما هو الهدوء ذاته الذي سيكون في الجنة، إلى أن يغرد العندليب ألحانه مُثبتاً أنه قلب الشجرة النابض.

وفي غضون نصف ساعة، يولد النهر من جديد، ويتلاشى لون الطين ويعود أونا إلى مظهره المعهود. تستقيم النباتات التي أثقلتها حبات المطر لتكمل مراقبتها الأبدية. وعندما تبدأ الشمس بالغروب، والتي هي آلهة أقوى من الإله "بينت"، تختفي آخر آثار المطر وتتحول قطرات الماء الموجودة على أوراق الأشجار إلى كرات حيث يعيش أطفال قوس القزح.

بعد توقف الهطول يبدأ الصيادون بقبعاتهم بالمرور على طول الطريق الموازي للنهر، وتصرّ الشبابيك الخشبية عندما يُخرج الناس رؤوسهم من النافذة ليستنشقوا أطيب الروائح، رائحة أونا بعد زخات مطر الصيف.

يصيح الصيادون: "إنه صافٍ!" هذه العبارة هي أقدم العبارات التي تبادلها الصيادون على الضفة، عندما تصدح الحناجر بتلك العبارة تبرز قصبات الصيد من الحقائب الظهرية للصيادين لتبدو مثل قرون الاستشعار.

ذات يوم غادرت منزل جدتي، وذهبت لأجلس على ضفة النهر الرملية. لطالما أحلم أن أكون قارباً من أوراق الأشجار وأن أنضم إلى البحر الأسود، كما هي حال معظم أنهار البلقان. على الرغم من أنه لم يسبق لي أن تجسّدت بشكل بزاقة، لكنني كنت أشعر بكآبتها وأنا أجلس على ضفة الأونادزيك وأرمي الحصى على المياه الخضراء. لكن حالما لمحت سمكة بربوط كبيرة الحجم، بدأ قلبي بالخفقان بسرعة. في البدء، لم آتِ بفعل سوى المراقبة لدقائق، لكن بعدها، أسرعت إلى المنزل راكضاً لأجلب صنارة الصيد والعدّة. شغلتني متعة المناورة والصراع مع السمكة لدرجة أنني

لم أنتبه لحلول الظلام. عندها استفقت على صوت الصراصير وصوت الماء الدافئ الجاري بين قدمي الذي يحني الأعشاب، فقد بسط القمر سناءه على السطح الماء.

جدتي

بالرغم من أن جدتي أمينة مسلمة متدينة تصلي الفروض في أوقاتها، إلا أنها كانت تحب الرفيق تيتو الملحد. تركها زوجها مع أولادها الثلاثة في أحد أنفاق سكة القطار حيث كان يختبئ الناس من القصف. كانت الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها، وكان زوجها قد ذهب إلى بنيالوكا ليلاحق تنورة إحدى الجميلات، أو على الأقل هذا ما ذكره تاريخ العائلة.

لم تستطع جدتي كره الاشتراكية، مع العلم أن البارتيزان كانوا قد أعدموا اثنين من أقربائها بناء على حجج واهية متهمين إياهما بالتعاون مع العدو. كانت عائلتها وبدون استثناء، من مؤيدي البارتيزان. قامت جدتي بنفسها، بمساعدة المعارضة عن طريق حمل الرسائل في حقيبة يدها البيجية اللون، وبقي تعاونها مع الشيوعيين سراً. لذلك لم تتلق أي نفع ماديّ من هذا العمل بعد الحرب.

بعد عدة سنين من الحرب، لم يتبق سوى حذاءها، ليذكرها باليوم الذي نقلت فيه الرسائل من زنزانة إلى أخرى مرتدية تنورة قصيرة جداً ومتأبطة حقيبة يدها. حصل ذلك عندما تسلقت السلالم الخشبية العالية وصولاً إلى العلية حيث كانت تبقي أحذيتها القديمة، لتضع الملابس في الغسالة أو لتذهب إلى غرفة عمي سيتا، حيث كانت تسند مرفقيها على حافة النافذة لتراقب الأونادزيك لساعات،

سارحة بالأفق، بعد شجر الصفصاف، بين دروب شجر الحور، وصولاً إلى نهاية الجزُر، حيث يعود مجرى أونا واحداً ويكمل وحيداً، من دون جُزر تعترضه، نحو ياسينوفاتس (معتقل). لقد كان الزوج الذي تركها موجوداً في ذلك المعتقل منذ عامين.

لم تفقد جدتي الأمل عندما اعتقل زوجها في ياسينوفاتس، بل سافرت على متن القطار إلى زغرب، على خط أونا الذي يتبع النهر حتى كوستاينتسا، وحاولت أن تخرجه من المعتقل. بعد أن تحايلت على عدة مسؤولين مسلمين في الحكومة الصورية لكرواتية المستقلة، نجحت جدتي بإخراج زوجها من المعتقل بعد أن قضى فيه عامين. قبل ذلك، واستناداً إلى تاريخ العائلة، أُدخل لستة أشهر إلى معتقل ستارا غراديسكا، الذي ذُكر في أغنية: "ياسينوفاتس وغراديسكا" موطن جزاري ماكس.

نجا جدتي من سلسلة جرائم قام بها القائد الساديّ الكرواتي ماكس لوبيريتش، ومن مجزرة ياسينوفاتس. وذكر أحدهم أن زوجها نقل ليخدم في قوات الحرس الوطني الكرواتية، حيث عُيّن نقيباً اعتماداً على دراسته الجامعية. بعد فترة غادر الحرس الوطني وانضم إلى البارتيزان. كان يُعرف عن جدتي أنها تمتلك قوىً خارقة وأن قوتها الداخلية أثّرت على كل من تكلمت معه، فقد كانت قادرة على حمل أي شخص على تنفيذ ما تطلبه من دون تردد. كان هذا هو تبريرنا لكيفية تدبرها أمر إنقاذ جدي من معتقل ياسينوفاتس.

شأنها شأن أصحاب الأمور الخارقة لم تنطق جدتي بشأن قواها. كانت تقول إن الحقيقة لعبة بين يدي الله الذي يساعد الناس والذي كانت تصلي له خمس مرات يومياً منذ أن كانت في الثامنة عشرة من

عمرها. كانت جدتي تقول لنا: "العمل على الإنسان والتدبير من الله".

أتخيل الآن نفسي صغيراً جداً لدرجة أنه يمكن لميردال تيرزيتش حملي في سلّة تسوّق قشية تفوح منها رائحة الخبز الطازج والحليب، إلى منزل جدتي في ضاحية بازارديك. أول محطة في طريقنا كانت زيتارنيتسا، حيث لعبنا البادمنتون. أو بالأحرى، لعب ميردال البادمنتون مع أصدقائه الذين كانوا بنفس عمره، أما أنا فلاحقت نحلة طنانة كبيرة محاولا أن أصيبها بمضربي وأرسلها إلى الفضاء.

كان العمّال يهدمون منزلاً قديماً يطل على زيتارنيتسا، ويرمون عوارض السقف على الأشجار التي نمت على حافة الجرف. كسرت العوارض العديد من الأغصان بينما تسقط وترتطم مصدرة دوياً، بالقرب من المحطة الفرعية ودورة المياه العامة. قال لي ميردال أن أذهب وأجلب واحدة من تلك العوارض ثم أهرب. ركضت نحو واحدة كانت تهوي ببطء ثم شعرت بيد ميردال تمسكني قبل أن أتابع مهمتي الانتحارية. وضعني في السلة كعقاب. برز رأسي منها وتأرجح مع خطوات ميردال إلى أن وصلنا إلى أوستيكولينا. يمكن من هناك أن ترى جُزُر النهر وملاعب كرة القدم ونقطة التقاء رافدي النهر في آجاك، حيث سبحت سراً في أوائل الربيع: تجرأت وسبحت في مياه النهر ذات اللون الأخضر الداكن، المُغشّاة باللون الرمادي بفعل أمطار الليل، وكان سِيد وحده من أنقذني من الغرق. كان نيسان وكانت المياه مرتفعة وباردة جداً. كان يمكن اصطياد السمك باستخدام طعم الديدان. بعد تجربة الغرق الوشيك، تعرّش الموت فيّ مثل رجل مسن في شقة تطل على البحر. نجا صديق طفولتي من الحرب لكنه قُتل في حادث مثل العديد من المحاربين، في أولى سنين السلم.

رأيت دخاناً يتصاعد من منزل جدتي فذهبنا إلى السلالم الضيقة بالقرب من منزل آل آرباس، حيث كنت أحب قضاء الوقت أتفحّص البزاقات البرتقالية اللون على الجدار المليء بالإشنيات في الصباح الباكر، قبل أن تبدأ جدية عالم الراشدين. في ذلك الوقت، كان العالم يُشكّل كل صباح من جديد. تعود الأبنية إلى مكانها متراصفة قرب بعضها بدقة، وتعود الأسقف لتحط على المنازل وتعود النوافذ من رحلاتها الكونية مليئة بالصقيع بما أنها كانت في ارتفاع شاهق يصل إلى عشرة آلاف متر. تزهر أشجار الصفصاف والحور والبيلسان مرة أخرى كل صباح على ضفاف الأونادزيك، وترتفع التوسيل والهضاب الأخرى من الأرض، على الحد الفاصل بين النهار والليل، آخذة مواقعها الجغرافية الثابتة. في الليل، يكون السرير الشيء الحقيقي الوحيد، وإذا كان أحدهم قادراً على أن يكون نائماً وصاحياً في الوقت عينه، سيتمكن من رؤية الأعداد الهائلة من الناس في أسرّتهم يطفون نحو الصباح.

خرجت من حقيبة التسوّق، وركضت نحو الضفة الرملية أسفل منزل جدتي. رأيت السمك في الماء: سمك البربوط وسمك السلمون. كانت تفوح من ضفة النهر رائحة الحشائش وعشب البرك ورائحة أنابيب مياه المجاري البارزة من الضفة الخضراء؛ بعمق استنشقت كل تلك الروائح. كان السمك يتحرك تارة بارتباك وخجل وتارة أخرى يهدأ وينتظر في بقعة واحدة ولوقت طويل مثل الحارس. هكذا كان عالمي: كنت سمكة تأقلمت على الحياة على اليابسة-دليل حيّ على نظرية داروين في التطور. كنت الحلقة غير المفقودة، مرحلة انتقالية بين السمك و"الإنسان العاقل" على الرغم من أنني كنت أبدو

كإنسان كامل. يا له من شغف غريب جعلني أجوّع نفسي في سبيل مراقبة السمك، وحتى وقت الغسق، حين يصبح كل شيء مظلماً تستشعر الضوء من السمك السابح ذهاباً وإياباً، وقت هيجان للحيوانات والبشر على حد سواء.

كان منزل جدتي هناك، ثابتاً وآمناً.

لوّحت لميردال وهو يعود إلى البلدة على طول الطريق المعبّد المؤدي إلى أعلى النهر نحو المدينة القديمة. ميردال هو الآخر كان ساحراً. علّمني أن أحب الطبيعة وجميع الكائنات الحيّة، خصوصاً السحالي والأفاعي والضفادع والسلاحف. لم أكن أعرف ما الشكل الذي ستتخذه حياتي منه دونه. ذهبت إلى منزل جدتي وكأنني أتسلل منتعلاً حذائي؛ الأمر الممنوع منعاً باتاً. كانت جدتي في غرفة المعيشة راكعة على سجادة الصلاة وجبينها يلامس الأرض التي كانت تنحدر بعض الشيء ناحية ضفة النهر، لأن المنزل كان يغرق شيئاً فشيئاً في الضفة الرملية. كان عليّ أن أجاري سلام جدتي، لأنها كانت صانعة معجزات وفي الوقت نفسه مثالاً للتواضع، فهي لم تتفاخر يوماً بمقدراتها، الأمر الذي جعل تلك المقدرات تكبر أكثر وأكثر في خيالي.

كان أمامي اليوم بطوله ولم أعلم ما الذي سأفعله تالياً. هل أبحث عن ديدان الأرض الأرجوانية في قبو منزل جدتي، حيث الأغراض المهملة التي كنت قد نسيت أمرها؟ ليس أمام الدودة حين تشطرها، سوى أن تظهر كل شيء. هل أراقب السمك وجريان المياه القوي نحو البحر الأسود أم أجلس على المقعد الخشبي تحت شجرة السفرجل لأستنشق عبير أزهارها ونبات لسان الحمل والبابونج البريّ؟

أصل الأنواع

في آخر يوم في المدرسة، كنا نذهب وراء الجانب الغربي لهضبة هام هيل وحقائبنا مليئة بالدفاتر والمذكرات، وكنا نبدأ احتفالات نهاية العام فوق المقلع تماماً. كان جانب هضبة هام هيل مدعّماً بعارضة حجرية تصل إلى حافة الجرف، حيث كنا نرمي طائرات وصواريخ مصنوعة من أوراق كنّا قد مزقناها من الدفاتر. ونتنافس من يستطيع أن يرسل طائرته أبعد ما يكون نحو الأفق البعيد الذي يحدده نهر الكروسنيكا بضفتيه المليئتين بحشائش الماء التي جرفها جريان المياه الباردة لتبدو مثل شعر حورية الغابات المسرّح. كانت سيقاننا متدلية فوق الهاوية ذات المصاطب المغبرّة المليئة بالحصى، فكنا شبه منتظرين ظهور شخصية أولد شاترهاند[1] على إحدى تلك المصاطب ممتطياً صهوة حصانه مستطلعاً التلال الخضراء لزالغ وغوفيدارنيكا بعينيّ شخص ينحدر من الحدود.

صنعنا طائراتنا على شكل طائرات ميغ الروسية، صدقاً كانت تطير بعيداً نحو كروسنيكا، لكن لم ينجح أحد بإيصال طائرته إلى النهر تماماً، فتصل كأقصى مدى إلى الطريق المعبّد الذي كانت تنبعث منه الحرارة. لقد ذاب إسفلت الطريق تاركاً آثار أقدام وعجلات وآثار سنابك أحصنة. على الرغم من أن الصواريخ التي كنا نصنعها

(1) ابتكرها الألماني كاري ماي أولد شاترهاند شخصية خيالية.

telegram @ktabpdf
مكتبة ٣٦٢

انسيابية ومدببة الرأس، لكنها كانت تطير بضعف وسرعان ما تفقد توازنها وتبدأ بالسقوط بشكل لولبي ومقدمتها نحو الأسفل. هكذا كانت تسقط الطيور عندما تصاب بطلقة من إحدى البنادق: منقارها متجه نحو الأرض وتغزل حول محورها.

أسفل المقلع كانت هناك تلال من الحجارة الصغيرة وآلات بالية قديمة لفصل الحجارة عن الرمل. كان هناك أيضاً برك ماء صغيرة محاطة بالوحل والشراغف وأكياس بيوض الضفادع ترتعش في الماء الفاتر، وكانت رؤوس الضفادع البالغة تبرز من الطحالب الموجودة عند حواف البرك. سطعت الشمس على البقعة التي ارتدت ثوب الخمول والمظهر المهترئ المعتاد في المناظر الطبيعية المتوسطية البعيدة عن البحر. لم نكن نستطيع رؤية أونا من موقعنا، كان يجري خلف هضبة هام هيل حيث تنضم أحد أفرعه إلى كروسنيكا. كان كروسنيكا أهدأ الأنهار في تلك المنطقة؛ عميق وبارد، لأن طوله كان 6كم فقط. كان ينبثق من جرف صخري في غابة نائية، تحوم فوقه النسور. بعد أن مزقنا دفاترنا وأطلقنا أساطيل الميغ والصواريخ رديئة الصنع، لم يبق إلا أن نقذف الحجارة في كروسنيكا. يأخذ الحجر وقتاً طويلاً جداً قبل أن يرتطم بالماء بصمت مخلّفاً حلقات يصعب علينا رؤيتها من حيث نجلس. كان دودا الوحيد بيننا الذي يملك قوة كافية ليرمي الحجر ليصل إلى كروسنيكا، وكانت مهارته في الرماية محل تقدير. فمن مسافة أقرب، يمكنه أن يصيب خصية البعوض اليسرى.

يعيش نوع غريب ونادر من الطيور عند أعالي أشجار الصنوبر؛ طيور القرزبيل، ويمكنك أن تجد قلة من الأشخاص استطاعوا في حياتهم رؤية طيرين أو ثلاثة من هذا النوع. الجزء العلوي والجزء

السفلي لمنقاره متقاطعان، على عكس باقي الطيور حيث يكون جزئي منقارها على استقامة واحدة. في تصنيفنا الهرمي للطيور، كان القرزبيل في أعلى جبل أوليمبس، متولياً عرش عالم الطيور. لذلك أعلنا أن القرزبيل خالدة لأنه لم يسبق لأي منا أن رأى أحدها ميتاً. عندما تحين ساعة موتها، يرجح أنها تسافر نحو السماء إلى أن تختفي كلياً، لتحط في الجنة حيث تتحرر من سجن الجسد، حرة كالأفكار تحوم في رحاب الفضاء الخارجي.

يُفترض أن الوصول إلى الفضاء كانت فكرة، كبرت وكبرت، واحتضنت أفكاراً أدنى وأضعف. في البداية، لم يكن للفكرة العظمى شكل مادي، لكن بمرور الزمن اكتسبت بعداً ملموساً حيث أثقلت بكلماتها وأصواتها.

غلى ضمن الفكرة العظمى حساء بدائي. كان على الأصوات والكلمات أن تحرر نفسها من الحضن الأبوي لأن كل الكائنات تسعى للحرية والاستقلال. وبهذه الطريقة تشكلت الكواكب والنجوم والمذنبات والشهب. ك+كوكب، ن+نيزك، ش+شهاب، كان لكل شيء مسمى، وكان للصوت أن يرتبط بالشيء الذي يدل عليه. أقامت الأصوات علاقة حب مع معانيها، فكان الكون كالبالون ملون.

لكن بعد ذلك، توسعت الفكرة العظمى، وهنا انبثقت الحياة. ولدت ثري، انعكاس صغير للفكرة العظمى، جزء من الكلمة الوحيدة، وبدأت رحلتها المستقلة الخاصة، حيث كسيت بالخضار وشُكلت المحيطات العظيمة. وسبحت بسرعة في الفضاء، فحدث انقلاب ما وأصبحت ثري هي الأرض. طوّرت الحياة أشكالها الخاصة

في الأدغال والمحيطات: كائنات بدائية وحيوانات نباتـــات وإنســـان طفولي- الخطأ الأساسي في كونية الفكرة العظمى. تكمن أكبر مآسي الإنسانية في القلق المادي، ومنذ نشأته الإنسان يسعى ليعود إلى حالته الروحانية، فكرة مصغّرة سعيدة، تماماً مثل طيور القرزبيل في أعـــالي أشجار الصنوبر.

المعركة الأخيرة

الأحد. اليوم الذي أقنعني أن العدمية موجودة. كان الأحد كالبوق الأحمر الذي يعزف في أذن شخص شبه أصم، متجهم بسبب ضجره الهائل. لم يستطع يوم كئيب كهذا إرضاء شخص مثلي أنا. حتى أيام العمل المزعومة كانت مضجرة بالنسبة إليّ، لأن بقية الأطفال كانوا يقومون بما يخبرهم به أهاليهم، لذا لم يكن لديهم الوقت لأن يخرجوا للعب. كنت أمقت هذا اليوم لأنه لم يكن هناك أولاد في الشوارع والحدائق. كانت جميع الكائنات الحية متعبة جداً. كان الأحد نعمة للعاطلين، وكل من أوى إلى فراشه ليرتاح. فيه ينخفض التنفس للحد الأدنى وكذلك حركة الجفون، بهدف حفظ الطاقة الجسدية. كنت أستطيع شمّ رائحة بهرجة نظام الحلف الواحد الصادرة من مطبخهم: يخنة الفاصولياء من دون لحمة وفلفل مخلل. كانت شقق العمّال عالم بارد محرّم، حيث لا يحدث أي شيء لكن كان كل شيء مغطىً بستار السرية والتمعّن بعد وجبة العشاء الوفيرة. كانت السكاكين والشوك والملاعق الموجودة في حوض المطبخ، سلاحاً ودروعاً متضررة بعد انتهاء المعركة.

في ظل غياب البشر من الشارع، لم يكن أمامي سوى أن ألعب مع الحجر. الحجارة التي أتت من القمر لكنني صرّحت بأنها من المريخ، لأنه كان يستهويني أكثر من القمر الذي كانت تبدو صوره

التي التقطتها الأقمار الصناعية وكأنه وجه مليء بالندب إثر حب الشباب. كانت تلك الدائرة الحمراء، واستناداً إلى إحدى الأساطير المريبة، مسقط رأس إله الحرب الروماني، مارس الجبار، الذي يأخذ اليوم شكل تمثال صامت في المتاحف الباردة. جميع آلهة العصور الإغريقية، التي أصبحت آلهة لاتينية استناداً إلى التصنيف التاريخي، كانت كثيرة التفكير ولم تقتنع بشيء، بحسب ما قاله الفيلسوف هيراقليطس الذي لم يصدّق قصيدة هوميروس التي قال فيها إنها الآلهة مرعبة وتتخذ هيئة بشرية. لطالما فضّلت آلهة النورديين، والإله أودين في المقدمة مقابل أتباع زيوس ذوي العيون الخضر المغفّلة مثل البشر العاديين. كنت أحب الآلهة الاسكندنافيين المرسومة بروعة الخيال الواسع في مجلات ستريبوكا المصورة، التي كانت تمتلك قوىً مذهلة. كان الإله "ثور" إله الرعد، المفضّل لدي.

كان ما أدعوه المريخيّ معروضاً في خزانة الزجاجيات في غرفة الجلوس في منزل جدتي ديلفا، مع فناجين القهوة التركية الخزفية وكؤوس زجاجية لشرب عصير الكرز الذي كانت جدتي تعصر حباته بعصارة الخشب وبيديها القويتين، للضيوف. كان شكل الكائن الفضائي غريب، عبارة عن حجر أزرق اللون بخطوط طولية جميلة. كانت حوافه حادة لدرجة أنها يمكن أن تقص الورق، وكان موضوعاً في مكان الشرف وراء الزجاج مثل نفسٍ متحجرةٍ، يجمع الغبار الخفي توّاق لأن تلمسه يداي. حالما لمسته أصابعي، شعّ مثل مصباح علاء الدين وبدأ يحوم في الهواء.

كانت غرفة المعيشة مظلمة، ورائحة الهواء حادة وباردة. عُلقت البسط البوسنية على الحائط فوق المساند، مظهرة زخارفها المشكلة

من نباتات هائلة ومدن هندسية. سيطرت الظلال هناك بينما سيطرت اشعة الشمس الملتهبة خارجاً. وكان جدي البارتيزاني الأسبق الذي أصيبت ساقة في إحدى المعارك في صربيا، نائماً في غرفة النوم بينما كانت جدتي تلف ورق العريش في المطبخ. الظلال المسيطرة طوعتني وأخبرتني قصصاً مدحورة عن العالم السفلي، حول المزارع حيث تنمو كتل من الظلام بدلاً من كرات القطن. تعلمت لغة الظلال بينما كنت أنظر إلى الجدران، حيث كتبت كلماتها الفظّة الساكنة. أحبت الظلال ليالي الصيف المقمرة، تلك الظلال المتحررة الآتية من العالم السفلي على شكل جواسيس من البشر–صورة مماثلة عما سيؤول إليه كل شخص يوماً ما. إذا ما حررت نفسك من الظلال، يمكن أن تصبح خالداً، لكن لم ينجح أحد بذلك حتى الآن.

شعّ المريخيّ بلمعة معدنية. فمرت الظلال بسرعة على الجدار مصطدمة مندمجة ببعضها مظهرت تقسيمات الغسق. حاربتْ في المعركة، لكن لم تُسفك أي دماء. كان لكامل ذلك الجيش أن يكون مستعداً ليُقاد إلى ضوء النهار ليتخذ العالم الخارجي بانـدفاع ممجّد.

عسى أن تصبح المصابيح شموساً صغيرة في منازل الناس، وعسى أن يصمد القمر والشفق وشبه الظلمة، وعسى أن يغرد العندليب مقطوعاته من ليلة إلى أخرى، لأنه لا وجود للنهار بضوئه الفظ الذي يكشف عن كل شيء أمامه بلا حياء. فبعد ذلك، ستأتي الحجارة طائرة من القمر والمريخ وفينوس. ستشع طاقة مثبطة، حيث تسود الظلال بأجسادها الشفافة. أعلم أنك ستسأل: وماذا عن الناس؟ ماذا سيحل بهم؟ دعهم يصبحون أصغر من بذور زهرة الخشخاش، لأن

جميع الكائنات الحية ستكون أكثر أهمية منهم، ولأن ولاياتها وممالكها ستتبدد على طول بحور أشعار العندليب. هكذا كان المزاج المسيطر أيام الأحد؛ اليوم الذي يُقدّم لنا العدمية.

رحلة الليل

لطالما قالت لنا جدتي إن أمطرت ليلة الجمعة، فسيستمر الهطول لسبعة أيام. وسيغطي المطر سماءنا ببركة آيات سورة القارعة.

حلمت أن الماء أحاط بنا من كل صوب، وانطلق منزل جدتي في رحلته الأولى. قبل أن نصبح رُكاب أونا، حدث اصطدام قوي فاقتلع المنزل من جذوره الأرضية. وهكذا حُرر من أساسه الذي كان يتضمن بقايا أغلفة قنابل منذ أيام الحرب العالمية الثانية، التي تفصله عن حجارة المنزل الأسبق الذي اشتعل إثر قصف الحلفاء للبلدة، وحُرر من حجارة التوفا النهرية التي كانت موجودة في قاعدته، وتحضّر المنزل لما هو أسوأ: لرحلة إلى المجهول.

الذين لم تفاجئهم المياه كما حصل معنا، صعدوا إلى قرية رافنيك، أعلى هضبة هام هيل، حيث أملوا أن تخترق الشمس الغيوم ويتوقف الطوفان. ولكن نحن الذين لم نرد أن يقرر ذلك الطقس المخيف نهايتنا، أمسكنا قدرنا بيدنا.

وبأعجوبة، تغير المنزل وأصبح بمثابة غرفة تحكم بمقابس حمراء اللون ومقاود صغيرة لنقود في خضمّ الطوفان. كانت صمامات المقابس تفتح مخرجة البخار الغاضب للمحركات عندما تسخن. وسرحت عناقيد العنب من منزل جدتي وشكّلت مركباً في حال فشل أشكال الدفع الأخرى. عبرنا المصطبة بمساعدة العتلة، وتوليت أمر

المقاود المعدنية. وقفت جدتي قرب شباك المطبخ مع عمي سيتا، الذي سبق له أن خدم في سلاح البحرية. تحول المنزل إلى سفينة، وكان المطبخ عبارة عن جسر وكانت جدتي الممسكة بمسبحتها القبطان. دارت حبات الكهرمان في عالمها الصامت. أمسك سيتا برمح مستعداً لطعن أي أسماك كراكي ضخمة قد تعترض سبيلنا، وكان الماء يطرش على وجوهنا ويتدفق نحو المطبخ، لكن ذلك لم يثبط من عزيمة البحارة في نفوسنا. جرفنا الماء على طول مجرى نهر أونادزيك باتجاه بيلانيكا وصولاً إلى ملتقى الأنهار ذات القيعان الرملية المليئة بأسماك البربيس وأسماك الكراكي. وهناك ينضم أونادزيك إلى كروسنيكا فينـدمجان معاً.

جرى كروسينكا بالقرب من الضفة اليمنى، لذا كانت مياهه أكثر برودة، بينما سلك أونا الضفة اليسرى للمجرى المقابل. في الصيف عندما تكون المياه في أدنى مستوياتها، تطوف أعشاب البرك وسط التيار، فتبدو أزهارها مثل أعين قزم خجول. حاولت أن أرمي ملعقة نحاسية كطعم في المياه العكرة، من نافذة القبو، بينما كنت أراقب بتمعن جهاز قياس الضغط بمؤشراته الحمراء وأتبع تعليمات جدتي. استطعنا، وبمهارة، أن نتجاوز طبقات التوفا التي يجري من فوقها الماء.

صاحت جدتي: "إلى اليمين". فبدأت أدير الدفة إلى أن استجاب المنزل إلى الحركة المطلوبة.

لم نواجه أية أخطار أثناء رحلتنا، ولا حتى من الأمواج العاتية التي ارتطمت ببعضها مشكّلة عمالقة هائلة من الماء. تذكرت شعر نوستراداموس حول نهاية العالم:

في الدرجة الثامنة والأربعين العليا

يُسلق السمك في البحر وفي النهر وفي البحيرة.

كانت المنازل المحاذية للنهر في بازاردزيك قد اختفت عن الأنظار فمررنا نزولاً عبر أمواج شلالات بيلانيكا وصولاً إلى البحيرة المُشكّلة حديثاً، التي وصلت إلى حدود المدرسة، وهددت بغمر أول المنازل على المنحدر المغطى بالأعشاب خلف هضبة هام هيل. بالرغم من أن الموسم وقتها كان موسم فيضانات، إلا أنه لم يسبق لأحد أن رأى فيضاناً بهذه القوة، على الأقل ليس في حياة جدتي. بدأنا ننزلق على طول أونا والمجرى الرئيسي لكروسنيكا، حيث دفقهما معاً الجزر الطويلة وكل ما كان عليها لأميال. برزت دعائم ملعب ميتيور وملعب زيلجينغر، من البحيرة لتُظهر قدماً أو اثنين من الدعامة. حاصرت الماء الصامتة القذرة المدرّج الغربي للملعب. وعلقت جيفة بقرة في شبكة المرمى. كان ماء المكان الذي وصلنا إليه بعد ثلاث ساعات من رحلتنا يحاول تقليص هضبة توسيل بغمرها لتصل أعلى من الأشجار عديمة الحيلة، مبتلعة أعشاش العصافير من كل مكان، والسمك الذي لا يخرج في وضح النهار، برز من القعر بأجساده البشعة ورؤوسه التي تشبه رؤوس البشر وكأنها تستطيع النطق.

بذهول نادتني إحدى الأسماك فضية الحراشف المنجرفة فوق هضبة توسيل وهي تحدق بالغيوم وبمنزل جدتي وقالت: "نفخ أول ملاك في البوق، وها هي الدماء ممزوجة بالبَرَد والنار..." قاطعتها مسرعاً، وأجبت عبر الفتحة في غرفة التحكم: "وأُلقيت إلى كوكب الأرض. احترق ثلث الأرض، واحترق ثلث الأشجار وجميع

الحشائش الخضراء". وعلى إثر كلامي، تراجعت السمكة إلى القاع المليء بالرواسب، ضاربة سطح الماء بذيلها الثقيل. كانت النظرة على وجه تلك السمكة رهيبة- كانت تبدو أكبر من الزمن. أظن أنني لمحت الوحش من مستودع العصائر، يركب بلح بحر المياه العذبة بحذر، ينتبه لكل شيء يحصل. سيطر الإرهاق، وكان من المستحيل إبعاد الأفكار الكئيبة.

في الدرجة الثامنة والأربعين العليا

يُسلق السمك في البحر والنهر والبحيرة.

في تلك المرحلة، قطعت سكين ما الحلم، فاستفقت مقطوع النفس تحت الغطاء الثقيل في غرفة الضيوف في منزل جدتي. كانت الضربات المتواترة للساعة على الحائط فوقي تعطي نفحة قوطية للظلام. وجدت المنزل لا يزال راسياً على أرض جافة وكان أونادزيك قد عاد لحلته المعهودة التي لم تكن قد ضاقت عليه. كانت المياه راضية ومسافرة بلا تعب نحو الملتقى لتنضم إلى جريان كروسنيكا البارد. نهضت ونزلت إلى القبو لأتفقد المؤشرات الحمراء للصمامات المعدنية، فكان وضعها والرقم الذي تدل عليه يظهر أن منزل جدتي قد غُمر بالماء تماماً.

فجراً، نهضت من الفراش وتوجهت إلى الرواق. كانت المياه تقطر على مرآة المشجب قرب الباب الرئيسي وكانت السجادة في الرواق مبتلة بالكامل. وطبقات الدهان الأبيض السميكة متفسخة وكأن زلزالاً قد ضرب المنزل. حينها استدركت أن منزل جدتي كان قد تحرك من مكانه سراً أثناء الليل وبمساعدة وحيدات الخلية وأهدابها؛ يمكن قياس تقدّم المنزل أثناء الليل بالسنتيمترات، لحين ذلك الوقت.

الأهداب هي السوط الصغيرة الموجودة لدى بعض الكائنات المائية، كبديل عن الأرجل. لقد أراد المنزل أن ينتقل إلى مكان آخر، إلى حيّ أكثر استقرار بعيداً عن النهر الجامح في أحلامي وبعيداً عن الفيضانات والكوارث الأخرى، إلى مكان يمكن أن يستقر فيه لسنين وسنين طويلة. يجب أن تكون بلدة بسكان أفضل مثل بيتر بان وهانسل وغريتل. لكن المنزل كان ساذجاً مثل أيدي من بنوه. في ربيع عام 1992، ظن المنزل أنه سيُعفى لأنه لم يكن يشكل ضرراً لأي أحد. كانت جميع المنازل حوله توهج مشاعلها الصفراء على رسوم الأطفال. ظنّ أن سبب ذلك الوهج هو ظهور النجوم باكراً في السماء. تظاهر بأن المنازل الأخرى لم تكن شموساً متقدة سقطت عائدة إلى جحيمها الداخليّ.

انعزل فكره منسحباً نحو أعلى نقطة في العليّة حيث تكوّم مرتعشاً مثل بومة متجمدة.

لكن لم يكن تحت تصرف المنزل سوى الأهداب والنهر الذي طغا صوت همهمته على عملية فرار المنزل. مرّ الوقت من دون رحمة، ولم يكن إلى جانب المنزل. تحضّر المنزل ليخون قدره الذي كان يُعاد بدقة مخيفة كل خمسين عاماً- فكان يتحول إلى رماد. وطبعاً دون الحاجة لذكر فشل محاولة طيرانه.

غارغانو وإلخ...

في هذه النقطة، ستسامحونني لأنني سأتحدث عن الحرب بكل تفصيل. أعلم أن هذا ليس شائعاً في أيامنا هذه، لكن في الرؤى المستقبلية الكئيبة بلى. في البداية، سوف تمتلئون وتتخمون، لكن حين تفكرون ملياً في الأمر، ستكونون مستعدين لزراعة الكآبة في قلوبكم الحيوانية. ستظهر كآبتكم عبر المجمعات التجارية بأكتافكم المثقلة وبمؤخراتكم السمينة وأنت تسعون وراء أجساد الحوريات ثلاثية الأبعاد. التي تريد أن تسحبكم لتقعوا في طي النسيان. تريد أن ترهقكم إلى أن تنهار أعصابكم وحينها يصل مستقبلكم. يحيا الاكتئاب!! لهذا السبب حاولت ما بوسعي أن أُبعد عن رأسي شكل ومضمون الصور المتعلقة بالحرب. أريد أن أكبتها وأكبسها كما تفعل حين تُغرق أحدهم بماء النهر فتقف على كتفيه وتضغطه نحو الأسفل، إلى الظلام في القاع حيث يقبع سمك السلمون، إلى أن ينقطع نفسها.

أردت أن أكون مثل الأشخاص الصالحين التقليديين؛ طبيعي وحيادي. لكن لو لم أفتح عيني سراً، لكانت الأفاعي على عمامة الدرويش قد أصدرت فحيحاً وحرّكت ألسنتها بسرعة كبيرة، فكانت تلك طريقة الدرويش بإخباري أنه عليّ تخليص نفسي من شكل ومحتوى هواجس أيام الحرب.

لذا، نقلت بإصبعي ذلك المشهد إلى المشهد المستقبلي للمجمعات التجارية وأشجار النخيل الصغيرة على الشواطئ. رفضت أن أشرب خليط العصائر الذي يعطيني شباباً أبدياً لوجهي وأعضائي التناسلية. ودّعت الاكتئاب النيوليبرالي- فمن المؤكد أن مشاكلي النفسية تنتمي إلى هذا الزمان. حيث سيقدم لك الازدهار والتقدم في ولايات فيها أمن وأمان، ولكن مقابل ذلك عليك أن تنسى. شخصياً لا أنسى ولا أسامح بل أتذكر أدق التفاصيل. من يريد أن يكتب، يجب أن يضع نصب عينيه أنه يخاطب جمهوراً مختلقاً. لذلك اخترت الكتابة منصة ففيها وجدت طريقة لأناضل وأكتب من أجل حقي بالذاكرة وكي لا أنسى، فأنا لا أنسى ولا أسامح وأتذكر كل شيء.

قصة غارغانو

أنا أعترف، أنني أتوهم الغضب. ففي النهار أرى الشمس بألوان الليل المشعة، وأتوق لمضاجعة الظلام، وفي المساء، أتلمس جراحي سراً قلقاً مما ستؤول إليه حالي إن التأمت يوماً. عندما ينطفئ الفانوس الدائري في السماء، تُفتح الجروح التي سببتها الطعنات على ساعدي. تلك الجروح التي سببتها سكين في قتال شوارع عندما كنت أدافع عن إحدى بائعات الهوى.

تفوح رائحة النسغ من شجر الصنوبر، وتتوقف المخلوقات البحرية عند الشاطئ ناشرة رائحة الملح المخدرة. في المساء يكون البحر مسالماً، وتطوف على سطحه جثث البشر وتتجمع حولها العوالق لولبية الشكل متلألئة في زبد البحر. ساعدني جرحي على رؤية البحر كوحش رمادي اللون ينوّمني مغناطيسياً بلونه الغريب، بعضلاته المفتولة، وأمواجه العاتية التي تبتلع كلّ حقيقة. لون البحر الآن رماديّ معدنيّ، ويتحول إلى لون الكرز المتعفن حين تغوص الشمس فيه إلى أن يختفي كل أثر لها عدا لون السماء القرمزية العالية.

الجروح على ذراعي هي موطن لنصفي الآخر، الحقود، غارغانو ذي البشرة الداكنة والشعر الأسود والعينين الثاقبتين. أحياناً نتبادل الأدوار، لكنني لا أحب ذلك لأن العالم من خلال نظارته يبدو أقتم من عالمي. لقد تلذذ غارغانو بتعذيب الحيوانات في صغره، كان يحبها

ويكرهها في الوقت عينه. دعوني أشرح لكم ذلك بالتفصيل: كان ميالاً لفعل السوء أكثر مني. ذات مرة ربط طائر عقعق هزيل إلى شجرة خوخ وجعله يتدلى من ساق واحدة ليتمرن به على التصويب مستخدماً حجارة حادة الحواف، وكانت تيارات النهر الزرقاء والخضراء تجري أسفل شجرة، وحرّكت النسمات أوراق الأشجار، فشتت الطبيعة تركيزه بينما كان يجدر به التركيز والتصويب بدقة. تقلصت عضلات ذراعه وتمددت بطريقة غير اعتيادية، وكان تركيزه منصباً بالكامل على لعبته المروّعة.

قال بهدوء إلى صديقه الذي كان بدوره يرمي الحجارة: "إذا أصبته في رأسه سيذهب إلى الجنة مباشرة".

"لكن هل هذا مسل؟".

كره غارغانو الطيور، لكنه كن بعض الإعجاب لطيور الحسّون وطيور القرقف التي تتباها بجمال ريشها في الربيع. أحب الطيور الصغيرة التي تحط على كفّه. شأنه شأن الأشخاص الذين يحبون ذوي الشعر الأشقر والعيون الزرقاء، أحب غارغانو الطيور الصغيرة، وخاف من الطيور الكبيرة والكواسر. لذا، كان عليه أن يكرهها ليحد من خوفه منها. ولم يكن ميالاً إلى الطيور البشعة أو الطيور التي تعيش مأساة ما. ويبدو أن العقعق كان طائراً صغيراً بشعاً. صديق غارغانو المشارك بالعملية كان أكبر منه وهو من علمه كل شيء عن السمك والماء والصيد. في نهاية الحوار، حملا الطائر والخيط ورمياه في مياه أونادزيك لتبتلعه الدوامات، لأن الماء يطهّر ويمكن أن يحيي أية جثة هامدة.

"ينبوع الشباب" قال غارغانو بازدراء وهو يراقب الطير في المياه.

بما أنه كان لديّ العديد من الجروح التي لا يمكن رؤيتها سوى ليلاً، لأن الليل هو وقت الأسرار، كنا ننتقل بسرعة من جرح إلى آخر.. الجرح الثاني متعلق بغابات الأمازون المطرية، سأحاول أن أنجو هناك أيضاً بعد أن تحطمت طائرتي في الغابة الرطبة المليئة بالحيوانات المفترسة. لقد اعتدت على ذلك وبت أستمتع به. أنا محترف في ما يتعلق بفنون ومهارات النجاة، ولهذا السبب عندي جروح كثيرة. فهي تروي أروع وأكثر القصص المشوقة. لكن أولاً عليّ أن أمسك السكين وأبدأ بشق طريق عبر الأدغال العدوانية.

عندما فتحت الجرح الثالث، كان غارغانو ينتظرني، جالس عند المشرب يرتشف جرعات كبيرة من الويسكي. وُشِمَ على باطن ساعد ذراعه اليمنى، التي كان يحمل بها المشروب، بخط Courier New عبارة "ستذهب كل اللحظات مع الزمن، مثل الدموع تحت المطر".

أرادني أنا لا أحد سواي، أن أصفه بالكلمات، أن أُخرجه إلى ضوء النهار.

تلك كانت ولادة غارغانو، المخلوق الساخر المُكرّس للظلام والمغامرات، وليس المخلوق الملائكي أو نصف الإله أو أحد المتعصبين الذين يؤيدون صورة العالم الأخلاقية، بل مجرم ماكر ذكي. رجل ظلام. واحد منا.

والآن أعزائي المدنيين، كما أعلنت مسبقاً: رجاءً خذوا نفساً عميقاً، وعسى ألا ترتعش قلوبكم المسالمة. سأقول بضع كلمات عن الحرب وما أتى بعدها.

برقية من المياه المظلمة

لم أقرب أونا منذ عدة شهور. كل ما حصلت عليه كان نظرة خاطفة. جرى النهر وكأن شيئاً لم يكن. بثلاثة أمتار تحت سطح النهر، في قلب الثقب الأخضر كان الصمت منيعاً. تابعت الأسماك معجزاتها فلم يكن دوي المدافع يصلها. في زمن الحرب تتبلد قوى الطبيعة، فعندما تصيب قذيفة إحدى المدرعات شجرة تقسمها إلى قسمين، فلا تبدي الشجرة تذمراً ولا تنبس ببنت شفة.

كان النهر بعيداً وأصبحت رجل الأرض الجافة. كان لديّ هدية للنجاة – حقيبة عسكرية – وبندقية تلازمني طوال الوقت وكأنها يد ثالثة. كان اسمي "الأول من أصل عشرة"، تلميح مباشر للـ "Borgs – البورغ" من سلسلة أفلام حرب النجوم. البورغ؛ كائنات ذات شأن عال، تشكّلت باندماجها مع حضارات قديمة من كواكب في مدارها. إنهم رجال آليون ذوو أجساد معدنية، لا شخصية لهم ولا هوية. في الحقيقة، يجب الحديث عنهم بصيغة المفرد، لأنهم جميعاً نُسخٌ من واحد فلا وعياً فردياً لهم، وإن صح القول بامتلاكهم عقولاً فهي أجزاء من عقل واحد. أنهم يتواصلون عبر التخاطر، سفنهم مكعبة الشكل عديمة المحركات فهم يتحركون بقوة الإرادة، إنهم أبرز تجليات نظم الحكم الديكتاتورية أسوأ من الفاشية والستالينية معاً. أشهر عباراتهم: "المقاومة عقيمة".

خلال الحرب كنا ندعو من لايزال مسخّراً لأفكار الاشتراكية، أو لم يستطع التخلي عن أفكار النظام الأسبق "الكوميونيون - الشيوعيون"، نسبة إلى المجموعة، الذين لم يتقبلوا أن يقصفوا بقذائف جيش الدكتاتورية التي مولته الضرائب التي يدفعونها. أعمالهم الشنيعة في فترة الحرب جعلت منهم "بورغيين - Borgs" غريبين، كانت قد نسيتهم سفينتهم وأُجبروا على الاستقلال، الأمر الذي كانوا يخافونه أكثر من أي شيء آخر. كانوا محميين من قبل النظام الهرمي للسلطة والقيادة في قلب الوحدات العسكرية حيث كانوا يشعرون بالأمان نسبياً. بعضهم تقبّل بحماسة الأفكار الجديدة وهي الإخلاص الكامل للفكر الجديد؛ الوطنية. لكنني لم آخذهم على محمل الجد، بذلك الدور، لأنهم كانوا أشخاصاً وليدي النظام القديم، لم تكن "الكوميونية المتأصلة فيهم لتختفي إلا بموتهم. من المثير للسخرية كيف شكّل النظام الشيوعي شبكة معقدة من النظم الهرمية في البلد على الرغم من وضوح معارضة مبدأ الشيوعية إلى كل ما يوحي بالهرمية والطبقية. كان مجتمعنا الشيوعي مليئاً بالطبقية وعدم المساواة - لم تتلاشَ الدولة، لكنها كانت تواظب على رفع الأثقال كي لا تفقد قوتها وتحافظ على شبابها. كان للكوميونيون مصطلح لذلك: اشتراكية الدولة، التي كان من المفترض أن تكون مرحلة انتقالية لذبول الدولة في نعيم الشيوعية. أيّ تشابه مع وعد الأديان التوحيدية بالحياة ما بعد الموت ليس مصادفة أبداً.

ترأست وحدة مؤلفة من عشرة جنود. يسهل كل شيء حين تتحول إلى عدد، وكان ذلك من اختياري. أردت أن أكون عدداً عشوائياً. أردت أن أجد دليلاً حيوياً، أن أجد مُعادلاً لي في الطبيعة،

كما في فيلم π (*Pi* – *باي*) لدارين آرنوفسكي. أردت أن أنعكس بعيون حشرة ذات قرون، كالخنفساء، التي تسقط في الماء في شفق أيام شهر آب لتصبح طعاماً لأسماك الشبوط السمينة التي تشبه أفخاذ البشر. رأيت حفراً في الشارع تمتلئ بمياه المطر بسرعة لتصبح بركة صغيرة – بيئات حيوية لأشكال قديمة من الحياة لا تتأثر بالعمليات الحربية والمنطق الحربي لعالم البشر، مثل الفولفوكس (طحالب) والآمبيا والباراميسيوم والعوالق الخضراء. كانت الشظايا قد التحمت بلحاء الأشجار. الحيوانات هي الوحيدة التي تخاف الموت كما يخافوه البشر، لأن الطيور تطير مبتعدة إلى أماكن آمنة وهادئة أكثر بعيداً عن مكان القتال، لكن الكلاب تنحب وتتباكى مثل الأطفال، قبل انطلاق المدفعيات لأنها تستشعر الصمت القاتل الذي يسيطر على المنطقة قبيل انطلاقها، ثم تتدفق الخنافس والنمل من الأرض. قطع من لحم البشر غطت مرج الأزهار التي تنبعث منها رائحة الكبريت والعصارات الهضمية، بينما تظهر الخنافس للهواء النظيف من الجحور والأوكار. أحياناً أعتقد أنني سأتمكن من رؤية البكتيريا إذا ما حدّقت بتركيز. أراها تتجمع وتتحرك في جميع الاتجاهات، وزحفها ذاك هو غرض وجودها-- وكأنها جيوش رومانية تتقدم قامعة فوضى العالم الصغير.

أردت أن أعود إلى الطبيعة الأم، لكنها لم تكن كما ظننتها. كنا نعيش في الغابات في تجاويف رطبة، وكنا ننام بين جذور الأشجار، بعيداً عن تيار الحياة الذي لا يمكن أن توقفه جلبة المعركة. يمكن للعندليب أحياناً أن يرحّب بالصباح على الأغصان المبتورة بينما يغني لنا نحن الحراس الذين نشعر بالوحدة. يحدث ذلك عند

وقف إطلاق النار مباغت فتبدأ العصافير تدريجياً بالعودة للبحث عن أعشاشها بين الأغصان المتزعزعة وأوراق الأشجار، ثم يمكنك أن تستمتع بواجب حراستك الليلية بينما تستمع إلى أصوات الغابة مثل التيار الذي كان يجري في الصفوف الأمامية حيث تسبح السلاحف الصغيرة وتستنشق شذا أوراق الأشجار النضرة والمتلبدة المليئة بالحشرات القوية.

لم يكن للاستمتاع بالطبيعة نفع حين يعود إطلاق النار، لأنه كان يكثف الكآبة الهائلة، ذاك الفرق بين صوت الحياة وصمت رجل حين يسقط إثر إصابته. لذا كانت ملامح وجهي تصبح فظّة عندما أكون في ساحة المعركة في الغابة بالقرب من بيليفين، بينما كانت لحيتي شعثاء وداكنة. شعرت بروح تتمدد بخجل في داخلي. لكن كلمة "روح" هي كلمة كبيرة جداً، لكن في البداية كانت مثل البذار، صغيرة وغير مستقرة، لكن ما لبثت أن كبرت وتمددت.

لقد تعلمت روحي التناغم مع جسدي، لتناسب يدي وساقي وكبرت لتشمل الكابوس الذي حولنا. كنت أعيش كمادة مع روح. كنت على علم بنماذج أخرى أيضاً- جنود بلا روح، لكن تلك قصة مختلفة. لم أكن قد لمست أونا لأشهر، ولا حتى بأطراف أصابعي. مشيت في الفناء، ثم انحنيت نحو ضفة النهر خلف منزل جدتي وغمرت يدي بماء النهر حتى معصميّ؛ كان سمك البربيس الصغير يسبح بجوع مثل جوع الجيوش.

بالنسبة إليّ، حدثت الحقيقة في البرقية المائية، أي هذه البرقية. بعض ما فيها من الأشياء غامضة. والأشياء التي لا أستطيع إدراكها بحواسي، على الأغلب ليست حقيقة. أعلم أن نيويورك موجودة

بناطحات سحابها الرأسمالية، التي تبدو من أعلى مثل مقبرة للأغنيـــاء. بالنسبة إلى البعض، تُعد نيويورك شيئاً ملموساً، لكنـــها بالنســـبة إليّ خيال وسراب أو كرسمة على بخار شباك طائرة، أو حتى شيء أقل من ذلك.

لو أن سقوط برجي التجارة العالمية حدث أثناء الحرب، لظننت أنه عمل غرافيكي دقيق صُمم على الكومبيوتر. فنائي كجندي، يقف وجهاً لوجه أمام مدينة نيويورك المتجسدة في أصغر الأشياء وأبسطها، مثل علبة سجائر فارغة وهذا ما يجعل فترة الحرب غريبة بشكل دنيء. عندما تموت، يمكن لروحك أن تتسع في علبة سجائر عليها جمجمـــة وعظمتان متصالبتان وشعار هارلي دايفدسون على غطائها. كنـــت شجاعاً وشاباً وكانت بذلتي العسكرية تناسب مقاسي تماماً. كـــان يمكن لموتي أن يصبح تحفة للفنون المعاصرة، ولكن كما قلت ســـابقاً، كنت بعيداً كل البعد عن أضواء أية مدينة كبيرة.

عندما كنت في بلييفين قرأت "*وإيقاع أبدي*"، مجموعة شـــعرية من الشعر الفرنسي للقرن العشرين، نُشرت في مونتينيغرو، وكان قد قدمها نسيبـــي الذي يسكن في شقة تعود لمدرّس للغة السلافيّة (لغة الصرب والكروات القديمة) كان قد هرب من البلدة التي كنا لاجئين فيها. كنت أبقي الكتاب تحت جعبة الرصاص على صدري، خلـــف البندقية المليئة بالرصاصات الذهبية. كان القماش القاســـي ونفســـي يفصلان بينا الشِعر والرصاصات. كان الشعر بالنسبة إليّ حقيقي أكثر من نيويورك أو أي مثيل لها: فقد كان يساعدني على النجاة. حفظت قصيدة أوريون لبلايز سوندرار، التي كتبها ليده التي فقدها في الحرب العالمية الأولى.

إنها نجمتي
التي على شكل يدي
إنه يدي التي صعدت إلى السماء
خلال الحرب، رأيت أوريون من خلال الشق
عندما كانت تأتي المناطيد لتفجّر باريس، كانت تأتي من أوريون.

امتزجت مقاطع الشعر مع صوت ضجيج مروحية عسكرية أمطرت مواقعنا بالقذائف. كان صوت القذائف مرادفاً لصوت المنبه، الذي يزيد سرعة ضربات قلبك، ويجعلك تتعرق إثر التوتر. أصبحت الأشهر سنين و لم أكن قد قربت الماء. حتى ظننت أنني نسيت لونه.

لماذا نخدع أنفسنا: كان الطقس بارداً وكنا على حافة العالم في وحدة تزحف وراء أعيننا، أو كما قال إليا إزتبيغوفيتش "قائدنا الكئيب" في سارايفو: كان الجو حاراً وكنا وقود لآلات تطلبت المزيد من الموتى، بركة كبيرة من الضحايا، حتى نندمج جميعاً لنصبح كرة كبيرة. كنا مرتاحين في ذلك المزيج وكأننا في رحم- خارج العالم الملموس، بأمان في جلد الضحية.

ومع ذلك، في بعض الأحيان كان الوضع جيداً على هضبة بادز، حين كانت النار تفرقع في الفرن المعدني، وتسود الهدنة في الخارج. كان يمكنك أن تطلق رصاصة أو رصاصتين من فوق المتراس لتُعلم البقية أننا ما زلنا على قيد الحياة، الأمر الذي كان يخيف الفئران البرية ويجعلها تصدر أصواتاً مثل أصوات الأطفال حديثي الولادة. مزّقت طلقتك صمت الليلة الباردة في الغابة المجهولة. بعد ذلك، بسطت غطاء حصانك ونمت في خندقك. شكّلت إعصاراً سحب العطر بنهم

وأن عم الدخان المتصاعد كان حبل إحدى "الدراويش-السحرة" الذي يمكنك من الهرب عبره إلى لاس فيغاس. وبعدها غططت في نوم عميق، مثل الماء بلا لون، بزيّك وحذائك وبندقيتك بقربك.

الترومومیتر

لنفترض أن الحاضر كيان مائي بلون وعمق معينين يمكننا غمر أنفسنا فيه. وبحسب مبدأ أرخميدس كل جسم غطس في الماء يكون أخف من كمية السائل التي حلت محلّه. لكن أحداً منا لم يطفُ إلى السطح عدا المجانين والأموات. يمكن لوزن صدماتنا كأفراد أن تُقاس بمقدار الحاضر الذي حلّ محل أجسادنا. ولكن تظهر عوائق صغيرة في الحاضر بسبب أولئك الذين يرفضون قبول دافعة أرخميدس- العوائق التي تهدد بتمزيق حاضرنا الكئيب إرباً، وكمية الإحباط المتولدة (أو الطاقة) ستعطي طاقة متولدة متطلبة لحرب جديدة. أو على الأرجح ستنفجر تلك الشقوق في جسد غائب عن الوعي. نادراً ما تخذلني قوانين الفيزياء. كتاب "خفيّ" واحد عن الموتى يمكنه تشكيل نفسه في قائمة الموتى التي تصدر في الصحف، بينما يستمع لكل أولئك الذين يقتلون أنفسهم.

الليالي المضيئة

كنت أشتعل من الداخل مثل يان بالاه[1] لأنني كنت مليئاً بالطاقة لم يكن لشيء أن يرضيني تماماً. بقيت كلمات أغنية "*لا يمكن لشيء أن يرضيني*"، تدور في رأسي، ربما الموت كان الشيء الوحيد الذي أمكنه أن يملأني بالنَفَس الذي ينبثق من الينابيع الحارة المروعة على وجهي. لم يكن سوى للموت أن يلتهمني من رأسي حتى أخمص قدميّ ويرسلني إلى الخلود مثل إحدى القذائف البشرية. وعلى الرغم من جاذبية الموت، كنت أهابه. ولهذا السبب كنت أحاول النجاة أثناء الحرب: تعلمت كيف أحافظ على اتزاني وأن أتحكم بالحاجة الملحة إلى الموت. حاولت أن أجد طريقة لأعيش مراراً وتكراراً لأن اقتراب الموت كان مغرياً جداً ولا يُقاوم.

سطعت الشمس مخترقة أوراق الأشجار المغطاة بحشرات المن الخضراء الشفافة. نادراً ما بلغت أشعتها الأرض التي تغطيها أوراق الأشجار العفنة والطين وبرك المياه الصغيرة. ملأت آثار أقدام الجنود الأرض مشكلة متاهة في وسطها موتنا وحياتنا. كان مخيمنا يقع بين واديين حراجيين متصلين بطرق حصوية تشبه الأمعاء المنسكبة. كنا ننام في أكواخ مصنوعة من ألواح خشبية كنا قد سحبناها من معمل

(1) يان بالاه الطالب التشيكي في جامع تشارلز في براغ الذي انتحر احتجاجاً على قمع ربيع براغ من خلال غزو جيوش حلف وارسو لتشيكوسلوفاكيا.

telegram @ktabpdf
مكتبة ٣٦٢

"سيباد" للمفروشات ذات ليلة، خائفين من أن تصيبنا طلقات بندقية حارس ضجر يجلس وحيداً في مقر حراسته.

حملت الرياح معها نفحات من رائحة البراز والبول المنبعثة من المراحيض الخارجية على حواف الهضبة، حيث تتكاثر الديان في طين. كان البعوض ينام مثل دبابيس الزينة مُعلقاً على المراحيض الخارجية، مُشبع بدمائنا. عرجت بقرة بساقها المشوهة في الحقل حيث كنا نصطف من أجل تحية العلم في الصباح. لقد انتهى الأمر بتلك البقرة كطبق من اللحم تناولناه قبل شن هجوم جديد. تدلى من السارية العلم الذي عفا عنه الزمن، المليء بشعارات سلالة كوترومانيك البوسنية. لم يكن تصميم هذا العلم يمت بصلة للحرب، لكنه بات الآن مثل رداء أحد الفقراء، لا يصلح سوى لتغطية طفل حديث الولادة. أردنا أن نضرم النار في كوخ قائدنا، لنشعر أننا قمنا بشيء بينما يسيطر الجوع على أفكارنا. أخذ أحد الجنود فأساً وضرب الكوخ من الزاوية. اقترح أحدهم أن نذهب إلى جازيتش حيث توجد برك كبيرة ويمكننا اصطياد الضفادع، لكننا كنا في حالة استنفار قبل التوجه إلى أرض المعركة. حاربنا الضجر بلعبنا للبوكر مقابل السجائر، وقمنا بقطف الفطر أيضاً. كنت قد نسيت طعم اللحم لكثرة ما أكلت يخنة الفاصولياء والمعكرونة. كانت تلك الليلة تعدنا بنوم خفيف بينما تلفنا الأغطية الرقيقة التي لم أدعها تلمس وجهي أبداً. لحظة ظهرت امرأة جذابة جداً في رأسي، يفصل بيننا مسافة ثلاثين كلم من الظلام، بينما الفوضى تحيط بي وقريبة جداً.

كنت أقضي الليالي الباردة الرطبة أستمع إلى أصوات معدتي وطنين البعوض، وكانت الجرذان المتيقظة تحت كوخنا تقرض الخشب

محوّلة ألواحه الخشبية إلى نشارة. أردت أن أذهب إلى الغابة بعيداً وأن أصرخ بأعلى صوتي إلى أن تتمزق أوتاري وأوردتي.

متى عدنا إلى الثكنة التي كنا نعتبرها مكباً أو سجناً أكثر من كونها ثكنة، كنت أشعر أنني أستطيع رؤية نور يسطع بعيداً خلفي في الغابة أو على الهضبة المجاورة. كان ذلك الضوء يأتي من جهة بلدتي، تلك البلدة الغارقة في ظلمة حقيقة وما ورائية. لكنني كنت أواجه أحياناً سراباً في المناطق النائية سببه حنيني إلى بلدتي.

لكن النور كان حقيقياً يشع على الحقول المتجمدة والمغطاة بالثلج، حيث كانت الرياح تعصف فوقها وكأن اليوم التالي هو يوم الدينونة. يمكن لذلك النور أن يكون ضوء النجوم المنعكس على طبقة الجليد التي صدعتّها أحذيتنا العسكرية الثقيلة مشكلة تحت تلك الطبقة بلورات جليدية صغيرة، ويمكن أن يكون نور القمر أو الهالة التي تحيط بالجليد تلك الطاقة التي شكلتها مخلوقات خرافية في منازلها الدافئة تحت الأرض، ويمكن أن يكون مصدر ذلك النور نهر أونا مطلقاً شرارات تشير إلى أنه ما من أحد يموت كلياً.

السحر الأسود

"لنتسكّع قليلاً في دار الحضانة القديم".

"حسناً، لنذهب".

مرّ شهر تقريباً على انتهاء الحرب، ولكن لم نكن قد اعتدنا على فكرة أننا عدنا إلى بلدتنا بعدما استعدناها وأننا سنقيم فيها كسابق عهدنا. عاد كل شيء إلى نقطة الصفر، كان علينا أن ننطلق من تلك النقطة لنصل إلى الضوء المنتظر في نهاية النفق. أي ضوء أقصد؟ لم يكن لأحد أن يعرف الإجابة حينها، بغض النظر عن الاحتفالات والفرح المفرط والطعام والشراب، كل ذلك كان بديلاً مؤقتاً وسهلاً وعملياً.

انطلقنا في الظلام. لم أذكر مسبقاً أن أضواء الشارع كانت معطلة، كل شيء كان معطلاً. بدت البلدة وكأنها من فيلم يروي أحداث بلدة ما بعد الكارثة. كان الظلام كثيفاً مثل زيت المحركات، وكأنه طريق فحمي نشق طريقنا عبره، نحن البارتيزانيون في مسيرة تحريرية نحو دار الحضانة، الموجودة أسفل هضبة هام هيل، بالقرب من المدرسة الابتدائية الشيوعية التي كنا نرتادها، وبالقرب من المركز الثقافي. بُني دار الحضانة في قلب بستان جميل يمتد وصولاً إلى أعلى هضبة هام هيل نحو زاباندي فينوغارد، حيث كانت الأعشاب تتمايل مثل السافانا.

إذا ما واجهت هضبة هام هيل، تكون المدرسة الابتدائية على يساري والمركز الثقافي في الوسط، أي أمامي، أما دار الحضانة فتكون على يميني في الجزء الحرجي من الهضبة. إلى أقصى اليمين توجد المقبرة الأرثوذوكسية التي لطالما كانت تثير الرهبة فيّ. يمر الطريق، المؤدي من دار الحضانة إلى زاباندي فينوغارد، أمام المقبرة المحصنة بسياج معدني. لم أتذكر أسماء الموتى هناك. كنت خائفاً من مجاورتي لبلاطات الغرانيت الحزينة (شواهد القبر). لكن كان انحلال الجثث قد زوّد النباتات بالغذاء من حيث لا تدري. كانت الطبيعة طاغية على المكان. لوهلة أُخذت بُحسن أونا وبالقرنفلات والأشجار ذات الجذوع المبرومة المليئة ببيوت العناكب، متوهجة بالبهجة.

بدا كل شيء وكأنه في غير مكانه ضمن مناخنا القاسي، فلم يكن حتى للنهر أن يتماشى مع رطوبة ذلك المناخ ونباتاته. كثافة أوسجة أشجار البرتقال من تلك الكآبة، حيث كانت ثمارها بحجم كرة القدم، خضراء مصفرّة ذات قشرة جعدة، تشكل درعاً لا يمكن اختراقه حتى بالمطرقة. كنا ندعو ثمار تلك الشجرة *بالبيبون*. كان ذاك السرداب المسيّج بالصلبان على قضبانه يقع على يمين الطريق، على علوٍ شاهق باتجاه الطريق المعبد الذي يصل إلى زالوغ، ووراء ذلك الطريق يوجد صف من المنازل وبعدها الكروزنيكا.

كانت شواهد القبور الغرانيتية والرخامية دليلاً مروّعاً على الموت والرعب الذي ينتظرنا. سنتجمد في نسق ثابت. كانت الطبيعة في تلك المقبرة المصغرة، متوحشة ونتنة مع نفحة من المرارة، فحين كنت أتواجد هناك كنت أشعر أنني أبتلع تراباً ممزوجاً بالدموع والديدان واليرقات. باختصار، جميع مكونات الكآبة.

صعدنا السلالم بالقرب من المركز الثقافي حيث كانت توجد على سوره تماثيل الأبطال الاشتراكيين، لكني لم أتمكن من رؤية ما إذا كانت تلك التماثيل لاتزال موجودة بسبب الظلام. بالكاد كانت العصافير تغرد بين الأشجار. كانت كتل من التراب متناثرة فوق الطريق المعبّد، تنمو عليها الأعشاب. كان لصخب الحرب معنىً أعمق، فكان: كل شيء هادئ إلى أبعد الحدود وبالتالي سيدفع بواقع جديد- إلى حرية العقل والجسد اللامحدودة.

كنا ثلاثة: أن وتايني وبلاكي الذي كان فتى قوياً.

- سأل تايني "أيوجد أحد هناك؟ هل هذا آمن؟".
- عقّب بلاكي "هناك ذلك الأحمق الذي كان يقود سيارته الفيات الصغيرة في أرجاء البلدة مثل لعبة سوبر ماريو".
- "لا، إن الطابق العلوي فارغ. كان سابقاً مخصصاً للأطفال اللقطاء، وفي الطابق السفلي، كان آل شيتكين يقون على الأسرى المسلمين الذين يُقبض عليهم في بداية الحرب.
- "ومع ذلك" قال بلايكي قبل أن يرتشف من زجاجة الويسكي "من الأفضل ألا ندخل. فمن يود أن يحتسي شراباً في سجن آل شيتنيك الآن؟".
- "انظري كم أنا قوي!" قال تايني بينما يمسك بحنكه محاولاً رفعه عن الأرض. كان وزنه 60 كغ، من دون الزيّ والأسلحة.

لبرهة بدا الشريط الذي يسجل الأحداث في رأسي فارغاً. لذا بالكاد أستطيع تذكر أي شيء ما عدا العراك الذي حصل في القبو. لا أتذكر الكلمات التي ومضت في ذلك الحدث المبهم. كنا قد

حطّمنا الزجاجات على الجدران السوداء للسجن الأسبق للمسلمين المدنيين. كانت الجدران سميكة مع بعض السواد على البلاطات البيضاء. كان الجلادون قد ثقبوا الجدران من الخارج وأخرجوا منها مداخن المدافئ. كانوا يضرمون النار، ويجلسون بهدوء مثل صيادي الأسماك الذين ينصبون شباكاً وينتظرون قدوم السمك إليها. كان الدخان يعبر الأنابيب مباشرة إلى القبو حيث السجناء. كان آل شيتنيك يدعون مجموعة السجناء المدنيين والجندي الوحيد المدفون هناك: "موتلي كرو" استنشق فريق "موتلي كرو" كل الدخان الصادر عن دار الحضانة التي تحولت إلى غرفة تعذيب. عندما كان السجناء على وشك الاختناق، أخرجهم أصدقائهم وجيرانهم السابقين الذين كانوا يضعون الكمامات على وجوههم لإخفاء هوياتهم كما في الأفلام الإباحية. بعد أشهر من المعاملة السيئة، أُخذوا ليُقتَلوا في أماكن سرية. بقيت هوية منفذي عملية الإعدام سرية حتى يومنا هذا.

باختصار، احتدم جدال بيننا، كسرنا المزيد من الزجاجات وخضنا عراكاً بين بعضنا. بعد ذلك، تصالحنا وأخذنا نتحدث عن برامج الأطفال المفضلة لدينا. جُرحت وجهي بقطعة زجاج من أسفل الزجاجة. كنت زعيم العصابة، وأردت حقاً أن أمزق نفسي إرباً، وكانوا يقولون "آخر من يغادر السفينة هو القبطان" وكلام فارغ من هذا القبيل، لكن عندما أكون مجروحاً أي شيء يُقال يكون بالنسبة إليّ عبارة عن مجموعة كلمات بلا معنى. بينما كان الدم يقطر من جبهتي إلى عينيّ لينتشر إلى باقي وجهي المغطى ببقع الشحم، لكمني

أحدهم بقبضته وكأنها من حديد؛ متحول علـــى شـــكل جـــورج فورمان. جرح تايني كفيه الصغيرين أما بلاكي فزنديها. *مررنا من هنا* كتبت بلاكي بإصبعها المدمى بطبقة الشحم السميكة ومن ثم توقيعها: فرسان الجيش البوسني.

طبقات الخوف في داخلي

في مخيلة الفتى، يكون الخوف رجلاً آلياً صدئاً يمشي في الشوارع في المساء قاسماً الأشخاص إلى نصفين بعبث. أنا لست ذلك الفتى، لكنني سمعته يتكلم على التلفاز. أنا على نقيض ذلك الفتى، أحب الروبوتات والمركبات الفضائية. لقد استنبطتُ مخيلة الفتى: ففيها، ذلك الروبوت الصدئ يبتر أطراف الناس ويلتهمها باستمتاع، يشوي الجثث على السيخ مثل بوليفيماس، فيقطر دهن الناس عن السيخ إلى النار مسبباً التهابها. كان صوت خوفي هو صوت صراخ جنين ميت. إنه ذلك التهديد المعدني الذي تقدح عيناه المقترنتان بالليل شراً، فيصبح العالم عبارة عن تدرجات للون الأسود. ذلك الخوف الكوني الذي فيّ وفي ذلك الفتى، يأسرني في بعض الأحيان تحت السلالم في الليل، بينما يكون خلال اليوم مخفياً بين أكوام الحطب العتيق وفي حاويات القمامة وفي الأسفل بين الجرذان. عندما يحالفني الحظ، ويشعل أحدهم الضوء في الغرفة تحت السلالم، ينسحب الخوف كما تنحسر سخونة المرض من الجسد.

الباب المبنى الذي أسكنه، عبارة عن شق مظلم، هوة بيني وبين باب شقتي. كنت أنادي طالباً مساعدة أنوار الشوارع، لكن ما الفائدة إن كانت لن تستجيب؟ فدرع الكلمات النورانية لم يكن مكتملاً في مخيلتي، لذا لا يمكنني استعماله، وقفت أمام المبنى وكأنني

مسحور. أخيراً، حين استطعت التغلب على خوفي، تسلقت الدرجات العشر وبعدها أصبحت في المنطقة الآمنة من شقتنا. الشقة دافئة بسبب الحطب الذي وضعته في المدفأة وألسنة النار تتراقص خلف الغطاء الزجاجي.

كان آخر مصباح في الشارع يطلق ضوءاً متقطعاً، وكانت الكرات البلاستيكية الخمسة مصفوفة على شكل زهرة، لكن نتيجة تلك الزهرة كانت مشوهة، لأن إحدى الكرات كانت مفقودة. ذات مرة كسرناها لنتسلى. كنا نأخذ الحجارة ونغطيها في الطين الذي كنا نعصره ونمسده إلى أن يصبح مكوّراً وقاسياً مثل كرة الثلج. ومن ثم نصوّب على تلك المصابيح البلاستيكية. كان تلك تصرفات صبيانية حمقاء تنم عن قلة احترام للعالم المادي.

أرسل مصباح الشارع المقابل لشقتي ضوءاً متقطعاً. كنت أراقبه عبر النافذة حيث كنت أرى أشخاصاً يمرون ذهاباً وإياباً على طول ذلك الشارع الفارغ. وقتها كان الخريف في أفول، ففي أول مرة يتساقط فيها الثلج يكتم آخر أنفاس الخريف التي لن تتعافى على الرغم من أن مغادرتها كانت قد أُعلنت بشكل واضح وصريح حيث تمثل ذلك الإعلان بأوراق الأشجار الحمراء الخلابة المتهاوية بشدة.

بدأت شارة النهاية بمنحوتة معدنية لامعة لفارس على ظهر حصان يدور على محوره، ثم بدأ تلفازي بعرض برنامج *الناجون* الذي هو وثائقي عن المنتزه الوطني الإفريقي *إيتوشا*: حيث تجد الوحدة مستلقية بكسل في المتنزه، والتماسيح تتدحرج والظبيان في أفواهها، أما العصافير فكانت تطير بكسل عند أعالي أشجار الأكاسيا.

إحدى دودات الأرض الأرجوانية كانت آليّ للسفر عبر الزمن. هذ الرحلة لا تحتاج إلا لقليل من الكلمات. مزقت الدودة إلى نصفين إلى أن رأيت أحشاءها، ومن ثم قطعتها إلى أجزاء. طعم ربانيّ يتكون داخل فمي، طعم التراب. عندما نطقت الكلمة الأخيرة، طارت الحروف وساقتني إلى أرض كنت قد حضّرتها لنفسي خلف جفوني المغلقة. غادرت ذلك العالم الرمادي للشقق والطين وحوافر الأحصنة، وسلكت طريقي بملل، وكأنني أعيش في إحدى روايات تشارلز ديكنز.

بعد ذلك طرت عبر الثقب الدودي الأرجواني. كان جسدي يصفر وكنت في غاية الرضى. حططت أسفل العشب الضخم. كل ورقة منه كانت بارتفاع مبنى كامل. كنت الأزهار مثل ملاعب كرة القدم وقلنسوات الفطر حمراء والبقع عليها تشكل غموضاً يثير البهجة في النفوس. كانت قوانين ذلك العالم تدحض الحزن. ينمو العشب القصير تحت العشب الضخم الذي بدا كطريق تدوسه قدماي بسرور.

كانت الحشرات بنفس حجم البشر في عالمنا، ولم يكن هناك سلسلة غذائية ولم يكن هناك كائنات تتغذى على غيرها، فالجميع كانوا يقيمون أودهم من رائحة الأزهار العملاقة وكرات رحيقها الطائرة المنتقلة بتثاقل في الهواء. كان ذلك العالم غير المكتمل عبارة عن قصة ما قبل النوم حيث يغيّر الراوي كل ليلة أحداثها بمهارة مضيفاً نباتات وحيوانات وألواناً ومخلوقات جديدة كل يوم. عندما قرأت كتاب ستيفن هوكينغ *لمحة عن تاريخ الوقت*، استدركت أنه يجب عليّ ألاّ أقابل نظيري، يجب ألا تلتقي نظراتنا، وإلا سنختفي في ظل

تلك الكتلة من الطاقة في الهواء. بغض النظر عن كل ذلك، لم يكن هناك خوف. كان غارغانو مستلقياً بأمان داخل الجرح الموجود على زندي وليس هناك أي خطر أن نلتقي لأنه موجود في لحمي، تحت الغرزات السبعة.

كنت أتسكع مع أحد الروبوتات الذي ينام في مؤخرة وردة عصفور الجنة العملاقة. وفاحت من بشرته رائحة الدفء والملاءات النظيفة تلك الرائحة الكلاسيكية المعروفة منذ الأيام التي لم يكن فيها سوى نوع واحد لمسحوق الغسيل. كانت عينا ذلك الروبوت الأخضر خضراء اللون برموش طويلة ترفرف مثل الأجنحة. لم نتحدث مع بعض قط، فقد كنا نتواصل عبر الأفكار، وكانت أفكارنا تتجسد كلمات في الهواء وتدوم إلى أن يفكر أحدنا بالجملة التالية. خضنا نقاشات فلسفية عميقة وطويلة حول الربيع والصيف وعن معاني العديد من الأزهار، لأن كل زهرة تحمل شعوراً معيناً. وبما أن هناك العديد من الأزهار، فلا بد أن يكون هذا العالم مكوناً من مشاعر. أيّد "غريني" فرضياتي بينما توقفنا في ظل ورقة شجر منعشة إيانا بثغورها، مطلقة الأوكسجين. على ضفة النهر الأخضر استدركت أنني تواجدت هناك سابقاً. كان ذلك العالم قريباً مثل لمسة أمي.

"هذا هو أونا بثقوبه الخضراء؛ تلك المرايا الصغيرة التي تنظر الجنة إلى وجهها فيها. فهذا النهر يجعل من جمال الدنيا مضاعفاً". كدت أصيح بأفكاري بأعلى صوتي وبقوة تهز الطبيعة السحرية لميكروزينا المعبقة برائحة الليمون أو أن أسبب نقطاً خلف الجفون المغلقة بشدة لأحدهم. لكنني كبحت تلك الرغبات.

على الضفة المقابلة كان فصل الشتاء، وقد لمحت نظيري هنـــاك. كان منحنياً ويغط راحتيه بالماء بحذر ومن ثم ذراعيه حتى المـــرفقين، بينما يحدق بسطح الماء الأزرق الشفاف. لعله رأى معالم وجهـــي في أعماق الماء حيث الأعشاب التي تفقد بخضورها شيئاً فشيئاً. لم تكن حركاتنا متناظرة، لأن نظيري كان في كتلة زمنية مختلفة. كان علـــيّ فتح عينيّ والعودة، لكن فتحهما يتطلب كثيراً من الإرادة.. لكن هـــا أنا ذا، فعلتها.

انطفأ مصباح الشارع. كانت شاشة التلفاز تبث إذاعة الراديـــو اليوغسلافي ترافقها صورة الفحص مع صوت بوتيرة واحدة. تلاشت رائحة الطبيعة الأم من أنفي. لم يعد للأحرف سحر، وكان قد ضُحيّ بدودة الأرض. كانت بصماتي ملطخة بما في داخلها. كنت قد عدت إلى الأرض. علمت ذلك من الدماء على أصابعي. الدم شيء مزعج، بغض النظر عن صاحبه. تلاشت المياه القذرة في دوامة فتحـــة ميـــاه الصرف وعادت إلى أونا، حيث سيلعقها العملاق الذي يقطن قيعان النهر وأسفل المدينة. لا تسلني كيف أعلم بأمر العملاق؛ فهو عنـــدما يتقلب في نومه تهتز الأرض وتعود دورة حياة المياه والخوف.

عام 2007 من منظور غارغانو

عندما ناداني غارغانو ناقراً داخل جسدي بشيفرة مورس، علمت أن هناك شيئاً جدياً وملحاً عليه أن يعترف به.

عليّ أن أكلمكِ أيتها البلدة، لأنك دائماً حاضرة في ذاكرتي التي هي الجنة الوحيدة التي لا يمكن أن أُطرد منها، كما يقول الشاعر. إنك الآن طيف واسمك لم يعد ذا شأن. يمكن أن نلقبك زيكس لكن ذلك لن يحسن من الوضع. يمشي سكانك في الشوارع ورؤوسهم مطأطأة في حالة خوف مستمرة من نزوات الطقس ومن السماء التي تتبدل أمزجتها باستمرار في الأيام الحاسمة الممتدة من أواخر شهر أيار إلى منتصف شهر حزيران. أحب الأحاديث على قلب روّاد المقاهي والمتقاعدين والشباب كانت أحاديث الموت. فالموت يأتي من الأعلى ويأخذ الناس بغض النظر عن عمرهم. فهو يرتفع بهم إلى جنات عدن، بين العروش والآلهة والملائكة لتلاوة الكتب المقدسة.

الموت هو أكثر صناعاتك تطوراً وها أنت ذا لا مثيل لك.

إنك الآن طيف المدينة. حالما تكمدّ الغيوم السوداء الدوّارة في الأفق، يسرع الجميع إلى منازلهم وكأن المنزل هو الملجأ الذي سيحميهم من تقلبات المناخ الهيستيرية الهائلة. يكون الشتاء أكثر كآبة بسبب سيطرة الوحوش الأخرى، وحوش بلا شكل محدد ونفوذة. في

ذلك الوقت لا يكون هناك أثر للشمس ولا المطر ولا حتى للعواصف الصيفية، يقتصر ذلك الوقت على وجود الظلال اللماعة فوق البلدة، اختلطت أرواح الأموات وأرواح الأحياء بعشوائية يقودها الاضطراب ذاته. ذلك القلق المُصطنع تنشره المياه الباطنية.

الشتاء مرحلة متوسطة، حيث يتخلل الاكتئاب كل خلية. ساعات الغسق التي تبدأ قرابة الرابعة والنصف بعد الظهر تأخذ الشمس الباهتة والضعيفة وغير القادرة على تلطيف الوجه المتجهم الذي يراقب العالم الخارجي عبر النافذة. تلك الليالي تكون خالية من السحر لأن الدقائق والساعات تدق رؤوس المارّة مثل مسامير من الواجبات تثقب ذواكرهم بالذكريات الثاقبة لتلك الحياة الأخرى. الموت ليس سوى تتمة لم تُقاطَع. أفكار تستعمر أفكار الناس في الليالي المضجرة مثل لوحة مساعد حفار القبور الذي يحفر قبوراً جديدة في مقبرة البلدة.

يوماً ما كنتِ مختلفة عما أنت عليه الآن. كانوا ينادونك "باريس الصغيرة". كنت مليئة بالاخضرار والدكاكين والحانات والمصانع والجموع التي تحتفل بمرح في فترة الثمانينات غير المدركة لسبب الاحتفال. وقتها لم يكن الناس مبالين بالعصافير. فقر أحدهم كان خياره الخاص. بينما الاستمتاع بالحياة كان أمراً يحدث بشكل طبيعي وتلقائي ومسلم به شأنه شأن الإدراك أن الغد سيكون يوماً جديداً. معابدك الثلاثة (بالصليب الأرثوذوكسي والصليب الكاثوليكي والهلال مع النجمة) منتصبة بالقرب من بعضها، ففي بعض الأحيان يمكنك أن ترى ظلالها تتلامس وتتقاطع قبيل غروب شمس الصيف- تأويل رائع للحياة الدنيا والأخرة.

وقتها لم ينتبه أحد إلى ذلك، بما أن التناغم كان هبة أسلافنا المنسيين، وكان من المسلّمات. عاش الناس من دون تاريخ، بل خارج التاريخ. لم تجلب الحرب الباردة سوى الشحّ في النفط وطوابير الناس الذين ينتظرون الحصول على الخبز الطازج. عندما ولّت أيام الحصار فتح المستقبل أبوابه على مصاريعها. أم هل من الممكن أنك لم تكوني كذلك قط.

إنك الآن طيف للمدينة. إن أساساتك متجذرة في الذاكرة طويلة الأمد. إنك الآن بلدة من الذكريات. لا تملكين ذلك العصب الذي يحثّ الناس على الإيمان في الحياة المرحة. لست الآن سوى موطن للنباتات والحيوانات. يمر عبرك نهر لم يعد يمدّك بثمار مياهه. إنك الآن طيف للبلدة، إنك الآن غرفة انتظار للموت. من الواضح أنني وإياك وهمين عرضيين.

ما تقدم، كانت مقتطفات مختصرة من أفكار غارغانو التي يسردها على نفسه. بعد ذلك تسلق الشجرة بقفزتين أو ثلاث بخفّة رجل جامح. جلس على غصن وضم ركبتيه إلى صدره، وحدّق بعمق إلى نسيج كياني. غطى شعره الأسود الطويل جبينه. لقد كانت أوراق شجرة غارغانو متغيرة الألوان شأنها شأن حرباء تتخفى بألوانها خوفاً من الأفاعي المفترسة. عندما بدأت أوراق الأشجار بالنزيف وبدأت الشجرة بالنحيب، أغلقت جرحي واضعاً كفّي فوقه دون أن ألمسه. شعرت بالحاجة إلى الخروج والمشي للتخلص من حالة جمودي. كنت بحاجة للابتعاد عن غارغانو وأفكاره المعدية. يا له من شعور مؤلم أن تشعر أن أحدهم يَشِمُ جدران أعضائك الداخلية. لهذا السبب بكيت وأنا أمشي عبر شوارع الليالي الفارغة.

في مكان ما على الأرض

استلقيت على أرض كوكبنا في الحقل حيث كنا نستلقي مستعدين لمواجهة الاستقلاليين في شمال غرب البلاد، وأخذت أجول بأفكاري. كانت النجوم فوقي وكتل التراب تحتي التي منعتني رائحتها من النوم. لذا، بدأت بتركيب جمل في رأسي، لتساعدني على الاسترخاء. خارت بقرة من الزريبة الموجودة في قرية مخفية ورائي، مثل زورق حزين. لم يكن للنجوم رائحة، إلا أنها في مرحلة من المراحل بدأت تأخذ أشكالاً أمام عينيّ.

لنستمتع بهزيمة الشمس التي تغرق في نوافذ الأبنية المسحورة حيث يلعب كبار السن في الورق للتخلص من وحدتهم. كيف لنا أن ندخُل الشمس هذه الأيام؟ إنها صورة شاحبة طبق الأصل عن وجوهنا، التي عنها تقشر لون الشمس الذي اكتُسب أثناء الصيف. إننا مصاصو دماء محبين للشمس وقريباً سيأتي الخريف، وقت النوم العميق والسبات. نستودعك أيها الشمس، أيتها الضيفة العظيمة، أيتها النجمة الخماسية الصغيرة. اغربي في ظلال الجانب الآخر للعالم.

ذبلت أوراق شجرة الجوز، وتدحرجت ثمارها على طول الطريق، وطقطق لبها، أما أشجار الحور فبقيت بقوتها مأوى للحساسين (طيور الحسون) بتغريداتها الخلابة، وقد وازى أحد أعشاشها الذي يضم بين جنباته عاشقين حافة شرفتي.

يستمر العشب بالنمو ليُقاس بالمليمتر. لا يمكن لشيء أن يوقف نيّته بإغاظة السماء بلونه، بينما تكوّم فئران الحقل التراب المرصوص الذي تثب منه الأرواح الموجودة تحت الأرض في الليالي- ذلك العطر الذي ليس عليه سوى أن يُنعش الهواء بعطر التراب الأسود، أما الإجاص المتضرر إثر سقوطه عن الشجر، فيقذف غازات كحولية تُبهر اليوم الذي يصبح تعباً ولا يلبث أن يخلد للنوم، فيترنح المساء النعِس عبر البساتين ساكباً السواد في كل مكان.

في المساء، تكفهرّ الهضاب وتتكوم الرطوبة الكثيفة والبرد فوقها وتتبخر المياه مشكلة الغطاء فوقها، ذلك الغطاء الذي يحجب معنى الحياة. تتعرش العصافير أغصان الأشجار بإيقاعها السريع مثل التيار الذي يسرق منا الوقت. لطالما أرت أن أصل إلى أعماق الهضاب وقلب الجبال، وأن أعبر من خلال التراب وكأنه ماء، لكي ألتقط أنفاسي، وأنتقل إلى أسفل العشب حيث تتمدد جذور الأشجار عبر التراب الأسود متجاوزة الصخرة الحية تلك الجزيرة في بحر الأرض المتموجة المرتعشة. من المحتمل أن الأموات النائمون في قبورهم هم الوحيدون الذين قد اخترقوا تلك الصخرة، بالفوسفور الموجود في عظامهم الذي ينير دربهم.

يمتلئ النهر بزعانف الأسماء البارزة فوق سطح الماء. تبدو وكأنها تريد أن تغادر الماء لتشرع بالسير على اليابسة. إن أسماك الشبوط متهورة وغبية بعض الشيء، فهي تأكل أي شيء أمامها حتى ثمار التوت الصغيرة التي تتساقط في الماء. وعليه، فالخريف هو وقت أسماك الشبوط الخرقاء، بامتياز.

سيحتدم الناس ويقلقون، سيحلمون بالبحار الجنوبية، سيرتدون المعاطف السميكة لتقيهم الرياح الشمالية التي تنفخ فوق النهر وتحوم في الشوارع محدِدَة طريقها إلى المنازل الدافئة بنيران الحطب، فتتأوّه النوافذ في وجه الرياح الشمالية. إن أصوات الرياح هي أحب سيمفونيات الخريف على قلبي.

سأنهض. أجل، سأنهض وأذهب إلى أحد الأكواخ بالقرب من أونا. سأغني لك الترانيم: يا أيها الخريف، يا أتقى الأتقياء الذي يسحر الطبيعة ليزيد من قوتها مجدداً. يا أيتها اليد التي تتحكم بالمادة، يا أيتها الطاقة العجيبة، من كوّنك ومن سمّاك وأطلقك في الهواء الطلق والماء والنار؟ لطالما كنت الهواء والماء والمار. ليست عجلة النباتات وطاحونة أجساد الأفاعي ونار الضباب والغشاوة سوى بضعة من علائمك المرئية. سمعت نعيق بومة، فحتّى ذلك الصوت كان ممجداً إيّاك بينما تسوق المياه التي تمشّك شعر حوريات التوفا وأعشاب البرك البنية التي تصدر حفيفاً رصيناً في الأعماق السحيقة حيث تتواجد بيوض أسماك البربوط. فهي بدورها تحتفل بك، بمقاومتها التي تجلب للمياه الجارية قوّتها. يا أيها الخريف، يا أيها الفارس النورانيّ.

استلقيت في الخندق، وحلمت بشخص تغطي وجهه بثور مضيئة. عندما بدأ فمه يرغي حالما شرع بالكلام، توهجت البثور مضيئة، وانتبجت مثل شرارات ليالي الصيف. كانت بثوره عبارة عن نجوم صغيرة، دفنا ذلك الرجل لأن جثته كانت قد بدأت تتحلل. تكوّمت بالقرب من قبره منتظراً البثور المضية لتخرج من تحت التراب. وخارت البقرة بما يشبه الرثاء له. فبعد ذلك ما لبثت أن خرجت تلك النجوم فعلاً من الأرض وصعدت إلى السماء. كانت

إحدى الليالي الحالكة، وكنت مستلقياً على تراب المعركة، لو أن مستطلعاً مريخياً كان جالساً على الحافة المدببة للنجمة ينظر إلى الأسفل نحو كوكب الأرض عبر التلسكوب الموجود داخل عقله، ما كان ليرى، إنما يرى البثور تلد نجوماً ضخمة بشكل عجيب بالإضافة إلى نجوم بالأحجام المعتادة، بدت كالجثث المتناثرة على الخطوط الأمامية للمعركة بوضعيات طبيعية محاكية هدوء الموت: جثث يندمج طيفها بأحلامنا. أشك أنه كان قادراً على فهم الأشياء، حتى لو أنه ركّز كل طاقاته المريخية. كانت المعركة عبارة عن حقائق مجردة على الرغم من المخيلة التي أخذتني بعيداً إلى عوالم راحت طيّ النسيان.

الأرض تصبح أدفأ وأكثر دفئاً، والبقرة تصدر خواراً بقصد الرثاء، وفي الغد موعد مع إحراق منازل وقتل أناس يحملون أسماءنا ذاتها.

عام 1992 - نقطة الصفر

كنت أعرف رجلاً من إحدى القرى المجاورة، جندياً في قطعة عسكرية ألمانية شارك في معركة دبابات في كورسك. كان في الثمانينات من عمره ومفعم بالحيوية، أخبرني عن الحرب العالمية الثانية بأدق التفاصيل وكأنها كانت البارحة. رفع قميصه ليُظهر جذعه كاملاً وقال: "انظر، فالندبات تغطي جسدي، ما من مكان خالٍ منها عندما كانت ذخيرة الدبابة تنفد، كنا نقفز منها ونشرع بالقتال بالسلاح الأبيض. في بعض الأحيان عندما كانت ذخائر الدبابات تنفذ كانت تصدم بعضها والأكثر قوة تصعد على الأخرى وتهرسها". بعدها أخذ مجة من سيجارته، وراقب نسيم شهر أيار الذي يتموج بين حقول القمح الخضراء. "في تلك اللحظة، كان رجال الأولى ينجون بحياتهم بينما الآخرون يذوقون طعم الموت الزؤام".

هل تذكر كاريلي؟ كان منزله يشبه جلد جندي الدبابة، ذلك القويّ. كان من الصعب إيجاد شبر واحد من الجدران لم تكن قد أصابته الطلقات. على الوجه الداخليّ للجدران، في الغرفة حيث كنا نستريح بعد انتهاء مناوبة الحراسة، وجد أحد الخلاّقين قطعة حجارة وكتب عليها فوراً بقلم رصاص مسطّح الرأس:

"حام اليأس والكآبة فوق سفننا،

كانت أولى أيام الحرب عبارة عن قطرات من الندى

أما نحن فكنا عبارة عن نحلات طنانة مُملة".

كان كاريلي الرجل الوحيد الذي أكل دراجة كاملة أمام الرفيق تيتو، بالإضافة إلى عدة كيلو غرامات من الديناميت، كما تقول القصة. عندما سألوه كيف فعل ذلك وعن إذا ما ظهرت عليه أي أعراض جانبية، أجابهم: "تؤلمني معدتي قليلاً، على الأرجح بسبب الديناميت".

كان هناك شخصان يدعيان كاريلي، واحد في صربيا والآخر هنا. إن الحادثة أمام الرفيق تيتو، حدثت مع كاريلي الموجود في صربيا، لكن، ولأسباب أدبية، اضطررت لأن أصف كاريلي الموجود هنا في بلدتنا.

كان لمنزله، ذلك العش الفارغ، غير القابل للتدمير شكل عجيب، فعلى الرغم من أنه كان مليئاً بالثقوب، لكن لم تتمكن أي قذيفة من هدمه. كنا بأمان داخل قبوه الإسمنتي، وكُنا قد جُرفنا إلى الضفة اليسرى لنهر أونا، حيث المنطقة عبارة عن صف من المنازل المهجورة على الضفة اليسرى، التي فقدت حيويتها وهدفها الأساسي في ثاني أو ثالث يوم من أيام الحرب. لقد هرب أصحاب تلك البيوت وسلّموا أمرهم على أنهم لاجئون، بدت ملامحهم مُغشّاة ومشتتة، فبعد أن أُبعدوا عن بلدهم، كان عليهم تعلم كيف يصبحون لاجئين في بلدات غريبة عنهم.

بالرغم من أن كل من كان يحمل سلاحاً أسرع وركض تحت وابل القذائف والرصاص، لكن حينها بدا كل ذلك وكأنه يحدث بحركة بطيئة، وكأن كل شيء تجمّد في مكانه، وكأنه قطعة في متحف شمع.

برز وجه على وجه التحديد من كل تلك الفوضى، وجه شاب في العشرينيات من عمره أحول العينين ويمتلك ندبة. كان شعره أسود وبشرته فاتحة، أعطته عيناه السمحتان مظهراً آسيوية، بنيته القوية وحركته المفعمة بالنشاط جعلت وجهه يوحي بالقسوة والحنان في الوقت عينه. وقف واضعاً رجلاً على حافة النافذة والأخرى على الأرض ونظر ناحية الضفة الأخرى من النهر نحو العدو المتخفّي الذي كان مُدرّعاً من رأسه حتى أخمص قدميه.

"ها هم الصرب المحليون وأقربائهم من جبال الجرمك، أتوا إلى البلدة ليحلّوا خلافاتهم القديمة مع *الترك*، أي نحن". أخبرني بذلك وهو ينظر بثبات.

بعدها سخر مني قائلاً: "إنك لا تنتمي إلى هنا أيها الجبان. أهرب متى سنحت لك الفرصة".

جالت عيناه الغرفة التي أصبحتا توحيان بالقلق بسبب التوتر بيننا. أراد الجميع أن يكون بطلاً فريداً، لأن ذلك ما كان يقود خيال الشبان المتعطشين لرهجة الحرب. لذا، كانت المنافسة شديدة، وفي بداية كل حرب، تخيل كل جندي نفسه كمثل أعلى تُنشد حوله الأناشيد وتُكتب عنه الأغاني. كانت الأغراض في الغرفة منتفخة بفعل الرطوبة ولعبت الأرضية الخشبية دور أمواج البحر المتجمدة بفعل حركة يد إلهية. كانت الثريا السليمة مزعجة. لو أن دعسوقة ذات سبع رقط حامت بالقرب منا مرفرفة بأجنحتها الصغيرة ببطء وبدأت بالضحك، لتهدم السقف ولغرق المنزل بأكمله بما فيه نحن بشخصياتنا المأساوية إلى مركز الأرض، حيث البروفسور أوليفر ليندنبروك ولارس مع البطة غيرترود والكونت الشرير سكانسم وخادمه الوفي تروغ،

يمشون بعلى غير هدى. لكن لم يحدث شيء جنوني عدا تشقق الأرضية الخشبية تحت أقدامنا.

شعّ جسد ذلك الشاب بطاقة متقدة، وكنت خائفاً من النظر إلى عينيه. أظهر وجهه استرسالاً كان قد أصبح راسخاً لأن برغياً كبيراً كان قد حُلّ في قلبه. كان تلك المرة الأولى التي رأيته فيها.

في العام 1993، كانت البلدة التي نعرفها قد اختفت أمام أعيننا. كانت مختبئة بين الأعشاب والأنقاض، وبالرغم من الانفجارات التي كانت تحدث كل يوم، كانت قد اكتسبت هالة ساحرة، فكنا نحدق إليها وكأنها آخر صورة يمكن أن نلتقطها قبل أن نغادر هذا العالم. فقد أصبحت العاصمة الغربية المرتبكة، المدينة الفاضلة التي كنا قد أطلقنا عليها اسم "أريد أن أعود إلى الوطن وكأن شيئاً لم يكن". هناك شيء آسر في ذلك التراجع الذي يزداد كل ثانية، فقد كان يؤثر على الواقع المادي بالكامل، أول من عانى منه هي أعمال الإنسان: فأصبحت الأشياء الميتة أكثر موتاً حيث كانت تتفكك إلى عناصر كيميائية. وطغى الكربون على الرماد تماماً كحال طغيانه في الألماس. لقد وصل دمار منزل كاريلي إلى ذروته.

لم يعد أحد يتأمل المياه والأسماك، فقد أصبح الصيادون جنوداً محاربين. بعد انتهاء تحوّل العالم إلى عالم آخر، لم تعد ساق لاعب كرة القدم تركل أيّ كرات، بل باتت وظيفتها الوحيدة تلافي الألغام. في نهاية نيسان، استفاقت الطبيعة من سباتها الشتويّ، دون أن يُلاحظ ذلك أيضاً. ومع مرور الوقت، عُدنا إلى أساليب الوجود البدائية، فالشيء الأكثر أهمية أصبح ملء البطون والشعور بالدفء والأمان. تعلمنا أن نكره ذلك الأسلوب، لأن ذلك كان الطريقة الوحيدة

للنجاة، وكانت تساعدنا على إطلاق العنان لقوتنا ودافعنا لأن نبقى أحياء، وكانت تزودنا بالإرادة للعيش. لم يكن تعلم الكره صعباً، كل ما يحتاج إليه المرء لتعلمه هو تتبع جسده الذي يجعله نبضه يقدم على أي شيء في سبيل البقاء على قيد الحياة. لم نستطع الاعتماد على وفرة الأسلحة والرصاص، ولا حتى على وطننا كما فعل إخواننا الصرب سابقاً، لذا اعتمدنا على أنفسنا وعلى أقوى ما في الإنسان؛ الشجاعة، لقد كانت الشجاعة سلاحنا القاتل الذي ساعدنا بأن نكون وقوداً للحرب.

كم هي سخيفة الرغبة بأن تجتاز كل تلك المعمعة دون أيّ أذى جسديّ. يفعل الناس ما بوسعهم لكي يجتازوا ذلك دون أيّ خدش. فهُم خطّوا حدوداً قاسية على جلودهم ليحفظوا أجسادهم. اعتقدوا أن البلدة خالدة لا تُقهر، لا يمكن تدميرها. لكن الشوارع مليئة بهياكل المنازل المحترقة والأنقاض. كان لكل كومة حطام قصتها وصرخاتها الخاصة في نطاق خاص بها، خارج عن سردنا هذا. كل قطعة حطام من تلك النفايات بقيمة قصة "Aleph - أليف" لبوريس، من ناحية الأماكن والأشخاص والحيوانات، إلاّ من ناحية الألوان الأساسية التي فقدت بريقها، وكأنها تآكلت. وبعد ذلك لم تعد البلدة ولا سكانها كما كانوا، على فرض أنهم عاشوا كفاية ليشهدوا نهاية الحرب.

لن تعود الأشياء إلى سابق عهدها، وقد غشيت عيون الناس عن هذه الحقيقة، فالجميع كانوا متفائلين بمستقبلهم الخاص ومستقبل البلدة. لقد سادت هذه العقلية بين الناس بعد كل حرب. بعد أن تنتهي منازلنا من كونها متاحف بمحاولات عقيمة بعرض ذلك الماضي

البتول، لن تعود صالحة للسكن مجدداً. في فترة عشر سنين، ستظهر مظاهر الحرب في صور باللونين الأبيض والأسود، وستُكتب كتب عن الآثار الداخلية للحرب، لكن ستكون تلك مجلدات بلا معنى، حيث لن يقرأها أحد. يا له من تناقض فالمُعيقات تحيط بنا من كل حدب وصوب، ومع ذلك حُكم علينا بالفوز. إنه لنصر غريب مليء بالحزن والأسى على ذكرى الأموات والأحياء، باختصار، على كل شيء. مضت لحظة التردد والشك، وعاد إيماني ببلدتي والنهر وقوتهما التي ستنفض الناس من الرماد وتعطيهم الحياة مجدداً.

لا بد من الإشارة هنا أنه عثر بعد تسعة عشر عاماً على جثة الشاب الأحول وعضوه مبتور وموضوع في فمه.

قوّة الأفعى

كنا ننفذ انتشاراً للقوات. لم يكن لشيء أن يحدث لنا لأن حوض أونا العميق والواسع كان يفصلنا عن العدو؛ كان حدّاً مثالياً، حيث كان السبب في أن نمنا في أمان، و لم تتطلب الحراسة سوى بضعة دوريات أثناء النهار. كنا نتجول عُراة الصدر لنقطف التوت البريّ والفطر، ونسبح في المستنقعات الصغيرة، ونتسلى مع الفرنسيين التابعين للأمم المتحدة الموجودة هناك، ونستلقي في ظل المنزل المهجور.

كانت الأفاعي تزحف بيننا من كل حد وصوب، تحشر أنفها بمهامنا اليومية غير آبهة ولا مدركة لوابل القذائف المتساقطة فوقنا. كان رجال الأمم المتحدة يكسبون رزقهم بعدّ القذائف التي كانت تتساقط فوق بلدتنا، على مدى عدة كيلومترات من مجرى النهر. لم يكونوا على علم أننا تأقلمنا على تلك الحال، على الموتى والموت وحواشيه. على مر الزمن، ذهبت إلى العديد من الجنازات، حيث بات ذلك أحد النشاطات الروتينية. كنا في بعض الأحيان نجلس بين الشجيرات ونضحك بجنون، بينما يتم فن أحد زملائنا.

في غرفة في الطابق الأول من المنزل، كتبت أشعاراً سريالية مختلة، لا علاقة لها بما يجري من حولي بتاتاً. لم أكن قادراً على اختراق ذلك الستار الذي يعيق صفاء ذهني وقدرتي على التعبير. ذلك الوقف جعلني أُطلق وابلاً من التشابيه الملتهبة من قذائف الكاتيوشا الخاصة بقصائدي.

لم أكن أقرب الأفاعي كما كان يفعل إميل العطّار، لكنني كنت أحبهم. كان يمكن تخيل تلك الأفاعي تدمر جنة عدن، منزل السيد الإنسان وعقيلته الضلع القاصر. كان يجب أن يُلقى اللوم على أحدهم، فكانت الأفعى وحواء كبشيّ الفداء، بينما برء جانب آدم. لذا، عليّ أن أساعد في تحسين سمعة الأفاعي. يُقال إن السمك في المنام هو رمز القلق، أما الأفعى فدليل شر ودلالة على خطر وشيك. لكن كلاهما بالنسبة إليّ بشارة للأخبار الطيبة. آخر مرة حلمت بكرة حمراء من الأفاعي، ربحت 250 مارك بوسنيّ في لعبة القمار.

أثناء إحدى الدوريات في صيف العام 1993، رأيت على منحدرات سكولوف كامن أفعى ملتفة ذات قرون ملتفة على إحدى الصخور. أمسكت بها من خلف رأسها ومن ثم رفعتها. لا أدري بما كنت أفكر حين قطعت رأسها بالموس ثم رميته من الجرف نحو أونا. لعلّي فعلت ذلك بسبب ضغط الحرب، فأردت أن أفرّغ من ذلك الضغط. عدا عن تلك الحادثة، لم يحدث شيء في غرفة لعبة القمار. كنت دائماً أراهن على الرقم واحد؛ نادراً ما كنت أراهن على الرقم اثنين، كان ذلك يقتصر على الحالات الميؤوس منها، ومثال على ذلك حين وقعت في أحد الكمائن.

تقشّر الأفاعي جلودها كل حين وآخر، تاركة ورائها قشرة تشبه غطاء مظلة عليها نقش قديم الطراز. أيمكنك تخيّل تلك الولادة الجديدة الجنونية؟ لا أظنك أنك تستطيع.

يتكون بدن الأفعى بالكامل من العضلات ويمر داخل تلك العضلات أمعاء طولانية. لو أن هناك أفعى مجريّة ذات قوى خارقة بالفعل، لكانت قادرة على ابتلاع وهضم الأرض بكاملها في غضون

ساعات، ولكان الموت قد حضر على الفور بفعل الاختناق الذي سببه تقلّص العضلات التي يبلغ حجمها ضعفي حجم جبال الهملايا.

كتبت قصيدة صغيرة للأفعى:

تنحدر من مكان ما في الفضاء البعيد، بالقرب من النجمة الشمالية،

ممتطية أحد الكواكب الذي يأخذ شكل جمجمة

وعلى جبهتها خمسين نجمة صغيرة

من ذلك الجليد الجهنمي حيث ينام محمد.

الأفعى يا سيّد، لا تأبه للرحمة. عندما رأيت أفعى عشب تبتلع بصبر وتروي، ضفدعاً بحجم قبضة اليد، تراءى لي كيف يمكن لوجه الله أن يبدو؛ مبتهج وغاضب. إنها سعيدة بطريقة لا يمكن للبشر إدراكها، البشر السوداوين حيال ركام حضارتهم الذين كانوا سببه.

عندما كنت صغيراً، تعرّشت رأسي أفعى عشب ضخمة. كان قد وضعها الراحل ميردال حول عنقي وكأنها قطعة حليّ طويلة زلقة. كنت سعيداً وكأنني طفل قد توّج ملكاً وانخرطت بأجواء الكبار القديرين الذين كنت لأكنّ لهم كامل الاحترام والتقدير، وكان ميردال أحبهم على قلبي. كان ميردال ذلك الساحر في فترة طفولتي، ذلك الرجل ذي العينين والشعر البرّيين، بعد انتهاء فترة الحرب، اختفى في يوم كانت تفوح منه رائحة شجر البلوط في غابة الصنوبر الكثيفة على تلة رافنيك. أو أن الأمر كان أن افترقنا للحظة في رموشه الكثيفة البريّة. دخل في غابة الصنوبر التي لم تكن كبيرة كفاية لأن تضيع فيها، لكنه وكأنه ساحر حقيقيّ. كان لميردال

طريقته بالاختفاء في بنية أوراق أشجار الصنوبر الإبرية ليظهر فوراً على قمة أعلى شجرة صنوبر، حيث من عليها يمكنه أن يقفز إلى أول غيمة تاركاً وراءه حياة ما بعد الحرب.

كان جلد أفعى ميردال في طفولتي، دافئاً وطرياً. كانت القبب المذهّبة للمدن، توضح الشعوب التي صنعت التاريخ في معارك الأمم وأعمال البشر من مجهر ليفينهوك الضوئي إلى التلسكوب، حيث كانت تبدو أشياء تافهة إذا ما نُظر إليها عبر تلك العدسات- دون مقارنتها مع الحجارة التي تمدّها الشمس بالحرارة.

لكنني كنت في حالة عقلية مختلفة عندما وقفت على ذيل أفعى الجرذان وكان رأسها موازياً فمي. فعلت ذلك لأُبهر نقيباً فرنسياً تابعاً لبعثة الأمم المتحدة. كان قد أتى ليستكشف عن التجهيزات العسكرية، فأخبرني أنني رجل شجاع.

قال: "باسكال روشيه" بينما يد يده.

"اسمي مصطفى هوسار. هوسار أي الخيّال. إننا معزولون هنا تماماً نحارب كلّ لأسبابه الخاصة. ليس هناك ما يردعنا، نقتات على الحيوانات المفترسة وعلى أي شيء متوفر أمامنا في البرية. هذا هو جُلّ ما نفعله. هذه هي حدودنا. نحن خارج الخريطة".

كنت أكذب طبعاً، لكن كان هناك نفحة حقيقة في تلك الكذبة.

"لم أذهب إلى الكلية الحربية. فالحرب أعظم كلية حربية". هذا ما قلته له، وبناء عليه عرض عليّ بعض الذخيرة والطعام. ذلك الفرنسي الطويل القامة في غابة تبدو مثل غابة إلفين في فيلم سيّد الخواتم، بما يغطيها من أوراق أشجار البلوط والزان، أعطى المشهد

رمقاً من الحقيقة- تلك التي هربت من أحلامنا. إذا أردت أن تنجو، فإن النظر إلى الوراء هو الجواب ومن دون نقاش. لم يكن هناك وقت للبكاء على الأيام الخوالي السابقة للحرب. من الجيد أن حالة التعطّل لم تكن مبرمجة ضمن ذاكرتنا. لم يفعّل لا وعينا أيّ شيء، لكننا لم نكن بحاجة إليه على أية حال. كتبت بضعة أبيات من أجلنا:

السلاح المعدني البارد يبعث الأمان
عندما تجبرك زخّات الخوف على إطلاق زناده
فإنه يثور ويجذب في الوقت عينه
كما يفعل جلد الأفعى تماماً

أطلقتُ الأفعى بين العشب والسرخس. كنا نحوم فوق الواقع في غابة ملحمية خيالية لأنه لم يكن هناك حتى لو اتصال بسيط مع الواقع الكلاسيكي. تُركنا للقدر. عشنا على الفطر والأرانب البرية. كنا مثل الأمة الضائعة في أحد كتب جون رونالد تولكين، التي انزلقت من تحت غلاف الكتاب إلى تحت برية سكولوف كامين عام 1993. كنا جنوداً أغرار، نتبع سياسة القطيع. وهكذا تناغمت والأفعى. التعذيب والقتل والاغتصاب والنهب والحرق هي أشياء تُعرّفنا، لكننا نقاوم تلك المقدرات التي لم تُمس. لو أنك طلبت تعريف موجز للحرب، يمكنك أن تقول: "إنها أضعاف نهاية العالم مع القشدة المخفوقة، لكن بطريقة أفضل بكثير. إنها وباء من الأفاعي بلون الشمس والقمر، ويمكننا ممارسة الحياة معها طوال الليل تحت السماء الواسعة.

إميل

منذ وقت طويل، حين كانت أرواح بلدتنا ترقي نحو السماء مثل السحاب، عاش رجل يدعى إميل وعمل في بلدتنا. كان رجلاً حقيقياً من لحم ودم. كان تشيكي الأصل، والله أعلم بما جاء به إلى وادي أونا الأخضر، حيث قررت قديماً فئة من شعب الإيبياد أن تستوطن أرضاً بالقرب من النهر بناء على الاعتقاد أن ثمار تلك الأرض تؤمّن حياة صحية.

احترم أفراد تلك القبيلة القوانين التي كان النهر يفرضها عليهم كل ربيع. عاملوا الفيضانات وكأنها إحدى العناصر الأولية. ولملموا ممتلكاتهم الغارقة بصمت أما الفتى سيئ الحظ الذي تهور واقترب من السيل، ربما ليراقب الدوامة التي بدت له من عين الإله بينت.

عاشت قبيلة إيبياد قريبة من الطبيعة، وكانت تمتطي الثيران ذات القرون حيث كانت العصافير تغزل أعشاشها، على طول ضفاف النهر، قرارهم بالاستيطان هو سبب نهوض البلدة الآن. أمضى إميل عامه الأخير هنا، كان رجلاً فهم ألغاز عوالم الحيوانات، واستطاع شفاء الأمراض بأعشاب لم تكن أسماءها موجودة حتى في مجلدات الأعشاب الطبية. ولكن أكثر ما كان يميزه ويدعو لاحترامه هو تآلفه مع الأفاعي. كانت علاقته بها قوية وغامضة. عندما كان الناس ينادونه، كان يأتي إلى منازلهم ويخلصهم من الزواحف الموجودة فيها.

لم يكن بحاجة إلى ناي أو أية آلة موسيقية أخرى كأداة لتنفيذ ذلك العمل الفريد من نوعه. كان يأتي خالي اليدين ويجعل الأفاعي تختفي من منازل الناس بمجرد نطقه لكلمات سحرية.

جميع أنواع الأفاعي تستجيب وتصطف وراءه منطلقة، ليقودها إميل إلى مكان تكون فيه بأمان، غالباً ما يكون ذلك المكان أحد الأراضي الصخرية في وادي أونا. رويت كثير من القصص حوله، منها ما هو حقيقي ومنها ما هو من نسيج الخيال. فُقدت مهارة إميل بموته. لقد دُفن بكرامة وتواضع في مقبرة البلدة في ليبيك. بعد عدة أعوام من المطر الغزير الذي لم يسبق له مثيل، نبتت الأعشاب على تراب قبر إميل، فكانت رؤوس تلك النباتات تذكّر بشدة بقرون الثيران التي كانت تابعة للسكان السابقين لضفاف النهر. كانت تلك النباتات تنمو بسرعة وسرعان ما غطت الصليب الخشبي المهترئ الذي حُفرت عليه أحرف اسم إميل إلى أن اختفت تماماً.

ثم تبدد إميل في عدة أشكال. فشكل القبعة، كان جزيرة أرجوانية، مستديرة الشكل، تفوق الوصف. في ذلك الشكل كان يمكنك أن تشتري قبعة قشيبة جيدة مقابل مبلغ ضئيل من المال. وعندما تضعها، تبدأ بعرض صور في ذهنك حيث يمكنك رؤية رجال سربرنيتسا وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم- أي ترى عملية الإعدام بوقتها الفعليّ. كانت الجثث تسقط على الأرض وتغرق بها غير طبقة من أوراق الأشجار والأغصان.

في الشكل الشفهي، كان إميل عبارة عن لسان أفعى مشطور، في بلاط قصر ملك الثورة. كان موجوداً في فم أفعى سمينة تبيت قرب

العرش. في بعض الأحيان كانت تلك الأفعى، وبانزعاج صادر عن تقلصات من داخلها، تفتح فمها وكأنها على وشك أن تتقيأ، وتبرز لسانها الرمادي المشطور وتقول: *إميل، إميل، إميل...*

القلب

في إحدى ليالي الصيف عام 1981، ظهر القلب على برج بارز من قلعة سيت، حيث كان فخر الأمة جمعاء، مُستأهلاً مكانه بين أذرع النهر، حيث صُوِّر بألوان الأمواج الزرقاء جنباً إلى جنب مع النواعير. القلب، حيث أطلقنا عليه تلك التسمية لأنه لم يكن بحوزة فكرنا كلمات أخرى لتعبر عن ذلك الكائن الغامض، اخترق حجارة البرج المتهدم ثم تابع نزولاً يتعثر على طول منحدر أونا الجبار. أولئك الذين رأوه قالوا إنه كان أرجوانيّ اللون ويخفق بقوة لدرجة أنه سبب الدوار للناس مسبباً لهم الهلع. بينما روى آخرون جانباً آخر من القصة، حيث كان القلب فيها هو الروح الموحّدة لعاشقَين منكوبَين، وكأنها نسخة محلية عن قصة روميو وجولييت، إلى القصة التي كان فيها كائناً فضائياً يثور ضد تيتو والحزب والاشتراكيين. أما فئة أخرى من الناس فكررت الاعتقاد السائد بينها على أنه كان روحاً شريرة وراءها اللواء ماتيا باكيس، آخر قادة قلعة سيت، القائد الذي رماه الأتراك في النهر مرتدياً درعه. وبعد عدة قرون، عاد جزء من جسده ليستحوذ على حصنه الأسبق.

لكل هذه الأسباب قررت تسلق البرج ذي السلالم الخشبية المتقلقلة، لأقنع نفسي بوجود ذلك القلب الرهيب. حين بدأت صعود ذلك الطريق الملتف وصولاً إلى قمة الهضبة مُحاطاً برائحة الصنوبر،

كسرت عصافير الوقواق سيري الصامت بألحانها، مُطلقة إياها نحو القمر والنجوم. حينما اقتربت من البرج، كاد قلبي يصل إلى حجرتي وبدأت أرتعش. بدأ العرق يتقطر على عنقي، وشعرت بنفسي وكأنني شجرة صنوبر دبقة من الصمغ والمفرزات. في القمة، قابلني نسيم وادي النهر، مُحوّلاً العرق إلى ملح ونشاء. لمحتُ ظهر شكل ضخم، فتخبطت العصافير في الأشجار خوفاً.

فجأة التفت ناظراً إليّ ثم قال: "أول قبيلة تُربط على الشجرة والأخيرة يأكلها النمل".

بعدها لفّ نفسه بمعطفه بسرعة ثم اختفى في دوامة من ورق الأشجار والغبار.

لو أنني ممن يخافون الله، لكنت بدأت بالصلاة حينها، لكنني وقفت مذعوراً، محاطاً بالنجوم.

لو أن العالم عبارة عن حلم تحلمه الكائنات العديدة التي لا تُعد ولا تُحصى، والذي يتكرر من جديد في كل يوم، ولو أن الله يُعرّف على أنه دائرة مركزها موجود في كل مكان وحدودها غير منتهية، لكانت تلك الليلة، رؤيا غريبة أصابتني لغرض تعذّر عليّ فهمه. هل عنت الكلمات التي سمعتها على البرج نكبة إحدى شخصيات ماركيز، بينديا الأسطوري، أم انهيار شرقين وغربين، دمار القارات وهجوم من الفضاء الخارجيّ، كإعلان عن نهضة قادمة حيث لن يكون أحد ليمجدها؟ إني لا أملك الجواب، لكن القلب لم يعد يثير الرعب في قلوب السكان، بل تلاشى إلى أن أصبح أسطورة، أو إحدى الروايات، أما أنا فبتّ أعمل مع أرواح الحيوانات والنباتات.

كأي شخص حساس، وقعت في حب كلمات كـــــ "روح" و"أخوّة" و"حريّة" و"ثورة". سعيت لأن أكون شاعراً عن التشـــرد، مقدّراً قسوة الشوارع ومستغوياً ظلال الرفوف الطويلة للكتـــب في مكتبة البلدة.

الثورة! كنت أتوق لأن تبدأ في مكان ما وانتابتني الرغبة لأحترق في لهيبها. لم أكن أعلم أن أمنيتي هذه ستتحقق قريباً.

الربيع

"برعم" – كانت الكلمة الفانية للعظيم الـذي لعـب دوره أورسون ويليس في فيلم *المواطن كاين*. استغرقني الأمر وقتاً طـويلاً لأفهمه ولأتعلم المعنى الصحيح للكلمات في اللغة الإنكليزية. أتـى الوقت التي تزهر فيه أغصان الأشجار. دائماً ما يصل الربيـع مثـل المد، غشاوة خضراء، مليئة بالأعشاب وبحر من الأعشـاب منـها المعروف ومنها لم يسمع عنه أحد. الربيع هو دين أقدم مـن بـلاد الرافدين. دائما ما أسأل نفسي إلى أين تذهب روح الحياة بعـد أن تفقد دمها الأخضر؟ هل ترتقي لتصبح جسراً ما بين الحياة والموت؟ هل تلك المعادن هي أسلحتها السرية: الماء واليود والعناصر الغذائية التي نطلق عليها أسماء علمية وصيغ كيميائية؟ ماذا كانـت تـدعى العناصر قبل أن نغلفها بكلمات اللغة البشرية؟ ماذا كـان يـدعى العشب أو الشجر في الأيام التي سبقت اللغة؟ بدأت بلفظ كلمـة *شجرة شجرة شجرة* في نفسـي إلى أن تبلـورت الكلمـة وتأثيرها. لعلّي استشعرت المعنى لوهلة وأعتقد أنني كنت قادراً على أن ألمسه في عقلي. كانت قد ضاعت الأحرف بدورها أثناء تكراري للكلمة، فلم تعد الشجرة شجرة بل تحولت إلى شيءٍ مختلف تمامـاً ليس لديه اسم أو صورة ذهنية، وكأنك سكبت لوناً أخضر في الهواء فتجمد الوقت. ما علق في الهواء كان يفوق الوصف: شيء لا شكل

له وأخضر لدرجة أنه رفض رفضاً قاطعاً أن يجد كلمة لنفسه.

كانت تلك التجربة التي سلّطت الضوء على غباء الإنسان وجهله - رغبتنا الرهيبة بأن نفسر كل شيء بأنفسنا، لكي نرتب وننظم الأشياء ثم نكتب كتاباً عنها، فيصبح هذا الكتاب كتاباً مقدساً عند الحمقى الذين لا يؤمنون بأدمغتهم ومشاعرهم. إن الغباء أزلي ولا يمكن أن نحد نشؤه، والحضارة جمعاء هي نتاجه.

ليس عليك سوى النظر إلى أسس القواعد اللغوية، تلك المتاهة من الاشتقاقات والتنوع الصوتي الذي يثير جنوني في كل مرة فكّرت فيه. إن قواعد اللغة هي ملعب لذوي العقول التافهة، أولئك الذين يشنون الحروب ويدمرون الكوكب في كل قرن. إن هتلر هو خير مثال على ذلك: كتب كتاباً ثم نفّذ مضمونه. إن أتباعه مجموعة من الأشخاص الذين يفتقرون الروحانية. إن القتلة مهما كثروا فإن ما يجمعهم هي النتيجة الوحيدة ذاتها، بغض النظر عن اختلاف الزمان والمكان. خليط الغباء مع الجهل = مجازر. إن الوحش الذكي يميل إلى الوحدة، وإن هذا ليس بنذير للشر، ولا يختلط هذا الوحش مع القتلة الحقيقيين المعاصرين له.

"إن الربيع مثل يد القدر" هذا ما بشّرنا به إدوارد إيستالين كامينغز. الربيع هو وقت المتعة، وقت الاضطراب. كل برعم هو عبارة عن شريان متورم لمخلوق خفيّ ذي عيون عديدة. لا تخشه! امش عبر الغابة الربيعية بتعقُّل حين ترافق ظلك التغاريد الشغوفة والمبتهجة للعصافير. إذا ما انحنيت لتلتقط إحدى الزهرات، ألقِ نظرة على أرض الغابة؛ والوجه المسالم للبشر - إنها تعكس مظهرك أكثر من أي كتاب عتيق.

بعد أن استيقظت من الغيبوبة بطقطقة أصابع أحدهم، كانت عيناي مفتوحتان لكنني كنت تحت تأثير التنويم المغناطيسي، شاهدت بذرة مانانغا هندية تنمو في يد الدرويش لتصل إلى حجم الشجرة الطبيعي. تسلقتها على خشبة المسرح وقطفت إحدى ثمارها. اقترح الدرويش أن آكلها، ثم أعطاني قلماً وورقة وطلب مني أن أكتب كل ما يجول في خاطري. كانت تلك الطريقة الآلية في الكتابة التي استخدمتها لأكتب موضوعاً قصيراً عن الربيع.

كانت تعليمات الدرويش محددة وواضحة. مستخدماً طريقة التنويم المغناطيسي التراجعي، حيث عدت في ذاكرتي إلى أعمق ذكرى من ذكريات طفولتي وعدت إلى الوراء إلى مرحلة طفولتي ومراهقتي، حيث تذكرت كلتا المرحلتين بوضوح حتى التفاصيل المنسية. كان هناك بعض الأمثلة حيث كان الدرويش قادراً على أن ينوّم شخصاً ليعود خمسمئة عام إلى الوراء، إلى تقمصات سابقة. في أحد سجون كوبنهاغن عام 1945، قابل مثيل هاردرب مثيل نيلس. كان هاردرب يقضي عقوبة بتهمة التعاون مع الألمان. عرّف نيلسن هاردرب على اليوغا والتنويم المغناطيسي، وقال له إنه قادر على تحرير وتوحيد الدول الإسكندنافية، لكنه سيحتاج إلى كثير من المال لأجل ذلك. بعد أن غادر هاردرب السجن، سطا على أحد المصارف وقتل أحد المدراء خلال عملية السطو، لكن المحكمة لم تعلم أنه أقدم على ذلك تحت تأثير التنويم المغناطيسي، لذا حُكم عليه بالسجن مدى الحياة مع أشغال شاقة.

من الواضح، أن تلك كانت حالة قوية من التنويم، حيث يتم تلقين الرسالة في عقل المتلقي الذي، بعد مرور وقت على التنويم،

واستناداً إلى وقت يحدده المنوِّم، ينفذ الرسالة المطلوبة بغضّ النظر عما إذا كان ذلك يتنافى مع المبادئ الأخلاقية للمتلقي. كنت أحب الأحداث البسيطة الغريبة التي كانت تحمل معنى ودلالة؛ بسيطة بمعنى أنها غير مهمة بالنسبة إلى تاريخ البشرية الهائل. كنت أعشق العالم الآخر حيث الناس الغريبين الذين كنت أنتمي إليهم من خلال حياة التشرد التي عشتها والندبة الحمراء التي تقطع وجهي. عدت إلى الغيبوبة.

المسخة داخل مستودع العصير

حدث هذا منذ زمن بعيد جداً، كنت صغيراً جداً لدرجة أنه يصعب عليّ أن أصدق أنه حدث بالفعل. لقد تعلمت المشي والكلام باكراً، وشققت طريقي مباشرة إلى دوامة الحياة. كنت مستيقظاً من ساعات قبل استراحة النهار، كان عليّ انتظار أن تقوم الآلة التي تحكم حياة البلدة بالتكتكة، قبل أن أُسرع نحو الخارج.

ذات صباح عندما كنت أقفز بين بركتين صغيرتين، زلت قدمي وسقطت أرضاً على ورقة من صحيفة مبللة ملتصقة بالأسفلت. وقرأت في العنوان الرئيسي أن سلفادور ال... قد قتل (كانت يدي تغطي جزء من الكنية). سلفادور الليندي قد قتل، وأنا مجروح. تابعت الركض وركبتي مجروحة ممسكاً بورقة الصحيفة في يدي. كان اليوم عبارة عن دوامة مبهجة لدرجة أني رغبت بالضياع بداخله، وأيضاً بذاكرة شخص ما.

في اليوم الذي انهرت فيه لمقتل سلفادور الليندي أجابت المسخة داخل مستودع العصير على أسئلتي الملحة عن قدرتها على تحمل الوحدة داخل تلك الكهوف الجليدية. قدمت لي حواراً ذاتياً قصيراً مع بعض التلميحات عن الهدوء والصقيع والوحدة. لا أتذكر كل شيء، لكن بعضاً من كلماتها علقت في ذهني لأنني شعرت بالأسف عليها.

'يمكنني القول إن الهدوء هو شعور كما غار – غار – غارغيل. إنه يفيض في تلك الهضاب حيث الأشجار والأعشاب الخضراء تلوح باحترام للقوة المائية التي تقدم لها الغذاء. إني أستطيع رؤيتها فقط في المساء حيث لا تظهر ألوانها، لأنني لا أجرؤ على مغادرة هذا الملجأ خلال النهار. لا يزعج هذا الهدوء أسراب الحشرات والطيور بل تزينه الأغاني والإيقاعات المقدسة النابعة من صميم الوجود: بنية الأرض أو الغبار النجمي والأجرام التي تنثر جراثيم الحياة. غار – غارغيل'.

تصدر المسخة تلك الأصوات من حلقها، لأن تفاحة حواء لديها تهتز بشكل لا إرادي عند رقبتها النحيلة التي تحمل رأساً ضخماً يائساً. أرغب بالقول إن رأسها كان "مزيناً" بعينين كبيرتين بشكل غريب، لكن هذا سيكون وصفاً مضللاً. فالكائنات التي لديها عيون كتلك لا تستطيع أن تكون سعيدة بشكل كامل. ولا بد لأي شخص يستطيع النظر إلى العالم عبر عينين ضخمتين كتلك أن يكون لديه دموع بحجم الصراصير.

فكر فقط بكمية المتعة لدى تلك المسخة عندما مر بها فتى مثلي، وكنت أنا الشخص الوحيد الذي كان عليها التحدث إليه. لقد سرقت كتباً للكبار من المكتبة وقدمتها كغذاء للمسخة الشرهة. بإمكانك تخيل جميع الفوارق البسيطة التي أشارت إليها المسخة القارئة داخل مستودع العصير وهي تجلس في الكهف الذي تقطعه الأيادي البشرية من الصخور الحية، وفوقها ترتفع قلعة من العصور الوسطى. ولديها القدر الأسوأ لكونها آخر فرد من عرقها.

"غار – غار – غارغيل. إن الإمساك بالهدوء أسهل عند سطح الماء، ومن ثم يظهر على شكل ضباب شاحب لبخار نهري يرتفع

بأناقة كروح سيدة، جنيه ذهبي من الروائح العطرة، الأناقة وأوراق التنجيم ببطاقات الحجر البركاني والرمل. إنها سيدة الماء التي تحكم الجن الصغيرة، وذات الروح الباردة التي تجلب هدوء المساء إلى البيوت عبر النهر، عندما يتسلل الغسق إلى خارج صدرها السماوي المليء بعجائب الدنيا. غار - غار - غارغيل.

من الممكن أن تكون العزلة أيضاً متلبسة بالبرد، تذكر هذا. وحده ذلك البرد المعتدل لديه القوة على أخذك بعيداً نحو الأبعاد المدهشة والآفاق الواسعة المصنوعة بشغف من قبل أخيلة البشر، التي تحاول محاكاة قوة الخلق التي اكتشفناها في علم نشأة الكون الديني. إنها عبارة عن عوالم باردة، بعيدة ومن الصعب الوصول إليها، والتي تتوق إليها كل روح، وموجودة داخل كل جزء من الماء، معلقة بشكل كثيف وبوفرة مثل خلايا العسل. العزلة هي أيضاً صاحبة الأجواء الغريبة والمتنوعة التي نحصل عليها عند غروب الشمس، والتي سكنت في العديد من الكلمات مثل: الديجور، الغسق، الدجنة، الظلام، الليل، الفجر، الضحى ذو اللون الأسود والأزرق الخفيف، أصابع الفجر الوردية، خسوف القمر، السوداوية... غار - غارغيل.

ذكر بورخيس نوعين مما يسمى - شبه الظلمة: النوع الأول هو الحمامة الزرقاء الخاصة بفترات الصباح، والثاني هو الغراب الأسود الخاص بفترات الليل. تستطيع العزلة الحصول على أزياء تلبسها من كل هذا، فهي ترتدي أحياناً شيئاً يشبه عباءة الشهيد، وأحياناً شيئاً شبيهاً بشبكة العنكبوت وطرحة العرس المصنوعة من الحرير والتي تخبئ تحتها وجه حورية مشعاً ومشرقاً، والتي تتأرجح بين امرأة وسمكة لبضع دقائق أخرى. وبناء على ما تقدم فالعزلة درع قوية لأولئك

الذين يعانون وأيضاً للقديسين. إنهم يتكاثرون من خلالها مؤكدين بذلك على الهدف من وراء وجودهم الدنيوي. إن الحياة بحد ذاتها بدأت بسبب انعزالية وجود *الإنسان* اللامتناهي. لكن ماذا لو أن تلك العزلة بحد ذاتها هي ذلك الوجود اللامتناهي، الذي حاولت الديانات بإصرار تسميته واستخدامه لمصلحتها؟ أو الذي وصفه عبر السنين الشعراء بالخلود الذي ينغرس في أجسامنا وأجسام الأسماك أيضاً؟ بطريقة أو بأخرى، إنه لمن الصعب توضيح ما في داخل النفس للآخرين والعكس صحيح. تلك هي العزلة - إنها بذلة حماية منيعة ضد الألم... غار - غاريل".

بينما كانت المسخة تتكلم، كنت أجسد كل كلمة تفوهت بها؛ فقد قامت ذاكرتي التصويرية بتسجيل كل حرف قالته. لم أفهم معاني معظم الكلمات، لكنني تخيلت العزلة وكأنها رواسب كلسية في مغارات تسقط منها المياه بشكل أبدي.

شربت زجاجة العصير حتى آخر نقطة، وبعدها ودّعت المسخة بتحياتنا القديمة: "طالما العصير موجود، فالأمل موجود!" أغلقت بالإبهام والوسطى الزجاجة ورميتها في أونا المتدفق، عندها عادت المسخة إلى أعماق الملجأ النووي، بسرعة إلى دخل تلك الأقنية لتصل إلى حجرة نومها التي كان الحدب منذ أربعمائة عام يختبئون فيها هرباً من الناس. خلسة وبكل هدوء أغلقتُ الباب الفولاذي لكي لا أصدر أي ضجيج، ومن ثم جررت خلفي غصن صفصاف لأمحي أثر قدمي عن الرمل، قبل أن أتسلق المنحدر الشاهق أسفل أولد تاون وأمشي بمسار متعرج على العشب كي لا يستطيع أحد اقتفاء أثر قدمي.

كانت البلدة مضاءة بالمصابيح الكهربائية، وكانت أماني وآمال ساكنيها تخيم عليها. اتجهت نحو الطريق الأسفلتي أسفل الكنيسة الكاثوليكية، قبل أن أسرع الخطى إلى نافورة البلدة القديمة لكي أغسل راحتي يدي الخضراوين. وبما أن الوقت كان مساء، انضممت إلى جموع الناس الذين يسيرون خارجاً، كنت أعرف مسبقا كيف أقوم بإخفاء سر ما.

ملاحظة

القصة وفقاً لما ترويه المسخة، تشير إلى أنها مبعوثة من عالم الماء، وكان سبب وجودها شعور رمال البلدة بأن سوء حظ من عالم البشر يهدد بالانتقال إلى عالم الماء والانتشار فيه، لذا وحد إلهة الرمال جهودهما، وأنهضا هالة من المياه أنتجت كائناً غريباً وحزيناً يشبه الإنسان، اقتضت مهمة هذا الكائن (المسخة) مراقبة البشر وطرق عيشهم والتقرب منهم عن طريق قراءة كتبهم، وقبل أن توافي المنية المسخة يتوجب عليها نقل معرفتها المكتسبة إلى والدتها ووالدها إلهة الرمال، اللذين يحكما عالم النهر، ولكن وبالرغم من كل ما سبق فإن الرمال كانت تعرف عن تاريخ الصنف البشري أكثر من البشر أنفسهم.

ولكن السؤال كيف لمسخ أن يمنع انقضاض سوء حظ البشر عليها؟ الجواب بسيط جداً من خلال المراقبة الذاتية ومن ثم فصل عن العالمين عن طريق العزلة.

لهذا السبب تملك المسخة عينين كبيرتين، وللسبب نفسه عمرها طويل جداً لأن التخلص من سوء حظ البشر يتطلب وقتاً كبيراً من

البشر، والعزلة أيضاً. لكن وبما أن ذلك الحظ السيئ قد تجمع في ذلك الصنف فلا يمكن إيقافه، والقوى الموجودة داخل الرمال كانت قد قررت أن توقف عمليات الاكتشاف داخل أدمغة البشر. لهذا السبب فإن مسخيتي الخاصة هي آخر واحدة من نوعها.

قابلتها للمرة الأولى منذ زمن بعيد، عندما كنت معتاداً على المرور بجانب ذلك المستودع لكي أشتري عصير الفواكه؛ المستودع عبارة عن كهف غائر على ضفة جزيرة النهر، هناك حيث نشأت بلدة أولد تاون. كان الناس في السابق يستخدمونه لتخزين الثلج، الذي يحضرونه من كهوف سلسلة غرميك، ومن ثم يسلم من هنا إلى الحانات والمطابخ المتنوعة.

بالطبع، كان مستودع العصير مكانا لتخزين العصائر من كافة الألوان والأنواع. كانت الصناديق البلاستيكية ممتدة على مد النظر، لقد كان بارداً ومعتدل الرطوبة، ودائماً كانت تصدر أصوات غريبة منه، وكأن زجاجات العصير تلك تتهامس وترتطم وتطحن بعضها. عندما قصدت المستودع للمرة الأولى، بعد أن جذبتني تلك الموسيقى، رأيت المسخة تقف خلف الباب الكبير شبه العفن، لقد كان الباب كبيراً جداً وكنت صغيراً وضئيلاً جداً فقد كنت أستطيع حشر نفسي بين درفتي الباب والدخول. هذه كانت بداية صداقتنا، والتي انتهت عندما ذهبت لأداء خدمتي العسكرية؛ قد تسألون لماذا انتهت الصداقة الجواب بسيط لأن المسخة لا تصادق إلا الأطفال. وعندما كبرت في السن، اختفت تلك المسخة، شأنها شأن أشياء عديدة لم يعد لها وجود.

أغنية الثقب الأسود

كلنا نعلم أن الجنة موجودة في الأعلى وإن الجحيم الملتهب موجود في الأسفل. وأن الله هو الحاكم الأعظم لكليهما. وإن الأرض موجودة بينهما، حيث نحن موجودون. وإن الله هو ربنا وخالقنا. هذا هو نظام الأشياء كما تخيله ورسمه المتحرشون بالأطفال المتنكرين بزي الكهنة. نحن مقاتلو آدم عبارة عن حيوانات عادية داخل مملكة الحيوانات الواسعة. لهذا السبب فإني أفضل أن أتخلى عن نفسي كرجل لكي أصبح حوتاً بطول خمسة عشر متراً وبوزن حافلة، أو كلب بحر أنيق وضخم يأكل فقط العوالق البحرية التي تدعى البلانكتون.

لكنني وضعت محول الشكل هذا بمكان آخر غير مكانه، لذا فأنا الآن أتجول في هذه البلدة، التي ستتزين عمارتها بالنار والطابع الجهنمي للسنوات الأربعة القادمة. بلدتي هي المكان الذي تلتقي فيه الجنة والنار. فيها تتساقط قذائف الهاون كالمطر، وتزينها باقات من الأزهار تتشكل من طلقات الرشاشات المضادة للطائرات من عيار 20ملم. عندما بدأت الغارة ركضت ودخلت غرفة واسعة في منزل رطب مكون من طابق واحد. من ذلك المنزل كأن بإمكاني رؤية النجوم من مكانين السطح ومن ثقب موجود في السقف.

من الثقب تخيلت أنني أشاهد لوحة لعاشقين ترتسم على وجهيهما ابتسامة باردة في ضوء القمر، وكانت المرأة ترتدي رداء

حريرياً وتسدل على كتفيها شعرها الأسود، أما الرجل فكان شعره مسرّحاً إلى الخلف ومثبتاً بواسطة الهلام المثبت، تخيلتهما مستلقيان على سرير ذي قضبان نحاسية، يعانقان بعضهما بشدة ويداعبان شعر بعضهما وكأن لقاءهما الليلة هو الأخير قبل فراق يوم الدينونة، تخيلت الرجل يتذكر مسقط رأسه في منطقة المستنقعات الحدودية بين ليثوانيا وبولندا، عندما كان صبياً واجتاز بصعوبة الوحل الخث البارد الذي وصل إلى ركبتيه، ملامساً باندهاش البيوض المنقطة لبطة برية تسكن عشاً مهتزاً على سطح الماء تغطيه أوراق الأشجار. لقد كان الرجل يعيش هناك في تلك التخوم حول المستنقعات حيث غالبا ما تغير الرياح تلك الحدود. أو على الأقل هذا ما كنت أتخيله.

وثم ما لبثت أن تخيلت لوحة أخرى كان فيها رأس المرأة مرتداً إلى الخلف، وكانت تقوم بتسريح شعرها الطويل أمام مرآة يحيطها إطار، تتفحص انعكاس قوامها المتناسق وردفيها الواضحين. حيث كانت تمرر إصبعها فوق العلامة الخلقية الوردية الشكل الموجودة فوق سرتها والتي كانت تجلب لها الحظ. في كل مرة كانت تقوم بذلك، كانت تبتسم ابتسامة خفيفة تشكل تجاعيد متراقصة حول عينيها. لم تلبث المرأة على حالها تلك طويلاً فقد أسدلت شعرها فوق صدرها، وغطت خصلات شعرها حلمتي ثدييها. الرجل بدوره كان مستلقياً على ملاءات مجعدة مدخناً في الظلام، وعندما كان يستنشق سيجارته كان طرفها يتوهج، كاشفاً بذلك عن افتقاره لإصبع واحدة – تلك الإصبع التي كانت الثمن الذي قام بدفعه جراء دخوله الحرب في منطقة آردينيز. لقد كان الرجل يحدق نحو السقف، حيث كانت النجوم تلمع وتتألق.

فجأة تخيلت أنني أثب من سريري العتيق بسرعة وأحدق نحو السطح حيث كان الرصاص يئز وينفجر، وفجأة توقف صوت الرصاص في الخارج الذي بدء كمطر صيفي مفاجئ. كان البارود بمثابة عطر كريستيان ديور في ذلك الطقس الليلي. مشيت على طول الشارع محاولاً حماية نفسي عبر المرور بصف من المنازل بطول مئة متر. في ذلك الوقت كان هناك بعض المنازل التي لم تكن قد احترقت بالكامل، وكشف ضوء القمر عن الثقوب التي أحدثتها شظايا قذيفة على الجدران الآجرية الحمراء. لقد كانت الثقوب السوداء تختبئ في الحفر التي صنعتها القذيفة.

كرات صغيرة مشدودة مصنوعة من ريش الغراب

بالنسبة إلى هوكينغ، فإن الضوء هنا مثني بشكل غير منقطع

قم بالطيران بحماسة نحو ثقب دودي وستخرج من هناك حيا مرة ثانية.

رميت نفسي نحو الإسفلت الذي كان قد احتله العشب والتراب، عندما أضاءت النيران المنازل شبه المحترقة، وكان يوجد أيضاً بعض الأعشاب الضارة بالإضافة إلى الهيكل العظمي لألستين آركن الذي قتل بقذيفة. هل سبق لك أن رأيت كلباً يرتجف بينما تسقط القذائف؟ لا بد أن آركن ارتجف كشخص خائف، وكان سبب موته هو الشعور الكامل بالخوف الذي يصيب البشر. نمت بين أضلع هيكله العظمي براعم عشبية، وحاكت اليرقات بشهوانية، ما تبقى من جلده بخيوط أجسادها الوضيعة.

تلك المنازل شبه المحترقة هي عبارة عن ساعات بدقة ذرية، والتي تعلن أن وقت الحرب قد بدأ للتو بالتدفق. هذا لأنه عند قدوم

موجات الحر والأمطار، ستتحول مواد تلك الأبنية التي تغطيها النيران إلى حطام وأنقاض، وستتورم الأجزاء الداخلية لتلك المنازل وتلتوي، فالشتاء سوف يمسكها برذائله الجليدية، قبل تتحول وتتداعى إلى غبارٍ ورماد، وتعود إلى الأرض تربة بعد سنوات من إساء الطبيعة لها.

لم يعد أحد يقطن في ذلك الجزء من البلدة وذلك بسبب قرب النهر. شعرت وكأن الطريق كله بما فيه من منازل هي لي. لم يكن هناك ولو نسمة خافتة لتداعب أوراق الأشجار وأفنانها الموجودة في الأفنية الخيالية الخارجة عن التصور، لكنها لا تزال منازل حقيقية بالفعل. كانت حواسي تواقة وتقترب من حالة اليقظة المثالية بينما كنت أتجول وحيداً في تلك الليالي. كان جسدي ورائحة عرقي وأسلحتي تملأ الشارع. امتد وجودي الأعمق إلى تلك الأفنية المهجورة ودخل إلى المنازل من خلال نوافذها المحطمة، وفتح أقفال الأبواب الأمامية نصف المفتوحة. لقد شعرت بهالة تلك البيوت المهجورة، وبدفئها المخبأ، وصخب الحرب في أفنيتها، وكأنني قد أمضيت طفولتي في كل منزل منها، بالرغم من أنه لم يسبق لي المجيء إلى هنا.

يعتبر هذا الشارع مسقط رأسي لعامي الأول في الحرب. فهناك اكتشفت السلام المدفون في داخلي، هنا شاهدت قطرات الندى المتكاثفة على الأعشاب الضارة، هنا استنشقت رائحتها بتعطش، تلك الرائحة الكريهة والنتنة. لكن السلام والهدوء لم يتمكنا من الانتشار في هذا الشارع إلا بعد جولة من تبادل إطلاق النار العنيف.

تلك الليلة، كنت أتسكع في البلدة، تحملني حرية جسدي الشرسة، مفعماً بمتعة معرفتي أن قذيفة ستسقط في أي لحظة، وستضع

حداً للقصة. كان قلبـــي يخفق بسرعة، وتنتشر نبضاته في شتى أنحاء جسدي، أسفل الزي المموه الذي أرتديه. في الحقيقة، كنت أجد متعة بالمقمرة بشيء كبير وقيم أكثر مني، و لم يكن كافياً القول إن حيـــاتي كانت قيمة، وأنني كنت أحبها لدرجة أنني كنت مستعداً للموت من أجلها. آه، يا لرقة ولطافة الحرب التي جعلت قلبـــي ينفجر. كانـــت السماء في زمن الحرب إلى جانب نجوم فان كوخ الذهبية تتقوس فوق حبـــي لذلك الشارع المجهول، عبارة عن ملاذي - إني أدرك ذلـــك الآن فقط - من عذاب كل من الكراهية والانتقام.

لو كنت كاثوليكياً، لكنت أعلنت أن الحيرة بين الرغبة في عيش حياة عادية وبين التعطش للدماء، ليست إلا شيء من القداسة. لكني لست كاثوليكياً، بل أن واحد من جماعة في البوسنة في تســـعينيات القرن العشرين كتب عليها أن تذوق الويلات التي أذاقها هتلر لليهود، أن عضو في جماعة تتعرض للإبادة.

اللاجئون

جدتي ديلفا، تشبه طائراً بنفسجي اللـــون ذي ريـــش نـــاعم ونظيف. تمشي بثقل، بطريقة متمايلة، في طريقنـــا إلى المنـــزل عـــبر زيتارنيكا. أحاول ألا أجعلها تتعثر بقدمي عندما تنقل ثقلها من ساق إلى أخرى، خائفاً أن تنقض عليها كلاب وقطط الحي إن تعثرت ظانةً إياها طائراً بنفسجياً يتكلم بدل أن يغرد.

سألتها إن كانت تخاف الكلاب والقطط.

فردت: "أنا كبيرة بما يكفي كي لا أخاف شيئاً". وتبختـــرت قليلاً، وكانت الشمس تشع عبر ريشها كما يشع المشط في الشعر.

نحن الآن أمام منزل جدتي. كان هناك نباتات متوسطية معلـــق على الباب، بعضها طيب الرائحة بخلاف البعض الآخر. وحتى الآن، فإن السياج الأخضر لا يزال الدرجات الأربعة أو الخمسة التي توصل إلى السطح، المحاط بجدران سوداء عليها أعشاب ضارة تنمو بأشكال منحنية ومتعرجة. لاحظنا مسبقا أثناء الحرب وجود نوع جديد مـــن المنازل ذات سقف قابل للتبديل.

بالرغم من أنني أعرف أن جدتي ميتة، إلا أن هذا لا يزعجني أبدا لأنني ممتن لأننا نتحدث بينما نتجول عبر طبقات النوم المائية. وكأننا نريد التعويض عن كل الكلمات التي لم نقلها خلال حياتها، عنـــدما كنت صبياً وطالباً في المدرسة الثانوية، وعندما كانـــت الســـيجارة

اليوغسلافية ذات الفلتر الأبيض لا تفارق زاوية فم ديلفا ابنة الستين ربيعاً المفعمة بالحيوية.

"فليحرق البرق جواربك!"

"اللعنة عليك!"

أسمع الآن صدى تعابيرها المختلفة التي سمعتها مرة سابقة من خلف السياج، ومن نافذة المطبخ الصيفي. لقد كانت مقدمة أرضية المطبخ مغطاة بغطاء من الخشب. عندما ترفعه، ينبثق من الأسفل البرد والظلام. وعندما تنزل إلى ذلك القبو فإن قدميك سوف تقابلان درجات، في ذلك القبو الذي تنبعث منه رائحة الرطوبة والعفونة كانت هناك أكداس من الحطب مرتبة بشكل جيد. في الحقيقة، كنت أتخيل أن ملجأ جدي المحارب وجدتي القادمة من موستار خلال الحرب كان شبيهاً بهذا القبو شكلاً ورائحة. لا أعلم إن كان ما سأقوله صحيحاً أو لطيفاً أو مقبولاً عن تلك الرائحة، ولكن يجب أن أقوله فعندما كنت أستنشقها كنت أشعر بنفسي في غابة كثيفة تنبعث منها رائحة وكأنما كل شجرة فيها هي عبارة عن روح عالمهما السفلي. كانت قبعات الفطر القاسية التي تنمو على الأشجار تحمل الرائحة الأقوى، بالإضافة إلى أشواك الأغصان الرطبة. وكانت رائحة الدود تعبر عن نفايات الغابة والبشر، تلك الدودات التي كانت أمعائها مليئة بالتربة. حيث كانت رائحتها الكريهة منتشرة بقوة.

كانت نباتات جدتي ديلفا الشيء الوحيد الأقوى من الحرب. تلاشت ضاحية زيتارنيكا تماماً كأي شيء آخر بعد المعركة التي جرت لاسترجاع البلدة مجدداً. هنا، حيث الحياة قد جفت، يوجد أرض خصبة لنمو جديد. وتلك الغرف التي تفتقر لأي من الأرض أو

السقف تستطيع أن تكون منصة للإطلاق عاليا في السماء. إن كل شيء قد وجد في البيت وجد طريقه إلى الأعلى بـرودة الغرفة، والعتمة، والسجاد البوسني، والعثماني، والبورسلان، والزجاج الكريستالي، وأواني الزينة وأدوات المائدة، وموقد الحطب المطلي بالقصدير، وتجهيزات الإضاءة والحجر المريخي أو القمري، جميعها الآن عبارة عن لاجئين خالدين.

يرقد كل من الجد والجدة في مقبرة البلدة في ليبيك، بجانب بعضهما، روحاهما دخلت في خريطة الممرات النجمية. في الليالي، حين تتساقط زخات الشهب، يكمن اللاجئون فيها عائدين إلى منازلهم الأرضية، وتتابع الحياة بكل بساطتها، مليئة بالعادات البسيطة والطقوس البشري. وعندها يمكنك أن تسمع صدى عبارات جدتي ديلفا: "فليحرق البرق جواربك!" و"اللعنة عليك". بين الشهب التي تحترق في السماء.

الغوص في المرآة

بدأ وقت المتعة الحيوية والمقلقة في آن واحد. إنه الصيف، حين تقوم أشعة الشمس – التي تشبه أذرع كيانٍ يتقبلنا، ويجذبنا إلى جوهره النووي الخالد – بلسع أجسادنا بأكملها ليتحول لوننا إلى نحاسي داكن مثل الهنود الحمر في الأفلام الغربية. إنه وقت السباحة، والذي يبدأ عادةً في اليوم الأول من شهر مايو، حيث يتم الاحتفال بتلك العطلة على ضفاف الأنهر، ومن المؤكد أن يقوم الجريؤون والثملون برمي أنفسهم في الماء ليتم تعميدهم من قبل البرد، ليسترخوا وينسوا همومهم وينقوا أرواحهم المتعبة من العمل. بينما نختفي نحن الأطفال في المنحنيات المعزولة للنهر، لنتعرى ولا يبقى على أجسادنا سوى سراويلنا الداخلية وندخل الماء مرتعشين وخائفين قليلاً من البرد، حتى يحوّل النهر لون شفاهنا إلى الأزرق وتتجمد إهاماتنا من برد الفجوات الأرضية الخضراء والأنهار القوية اللطيف.

السباحة أمرٌ يتوق الناس إليه خلال فصلي الشتاء والخريف بأكملهما. لا يتحدث أحدٌ عن ذلك حين تكون السماء تمطر أو تثلج ويشعر الناس بوطأة الشك، ولكن تبقى الرغبة مدفونة عميقاً في قلوبنا، وهي تنتظر مثل برعم شجرة سفرجل، لكي تنطلق في رحلة نموها المملوءة بالسعادة واللذة الجسدية التي لا تقاوم. يتعلق الأمر ببذرة الحياة الصغيرة تلك، والتي لا يمكن لأي شيءٍ أن يضع لها حداً

telegram @ktabpdf
مكتبة ٣٦٢

لأن الصيف قد أتى، وهو وقتنا الخاص من العام. يمكن حينها للناس أن يتجنبوا العمل لأن الشمس تجعل أجسامنا كسولة، وتدب في عضلاتنا الطاقة فقط حين نسبح ونغطس للأسفل لنرى الرمال تتحرك في القاع بسبب التيارات العميقة. حينها، يمكنك بالفعل أن تمسك الأسماك بيديك العاريتين، ولكن بما أنها تكون محمية بطبقة زلقة، تنزلق من يدك وتفر، وتختفي في الظلال الخضراء الغامضة في النهر. من الصعب انتظار الشمس في الصيف كي تغيب وتشق طريقها بين القمم، لذا نلتقي أحياناً بالقرب من النهر الساعة التاسعة صباحاً ونتحدث عن المياه، منتظرين إشارةً سريةً من الشمس تعني أن وقت السباحة قد حان. قبل تلك الإشارة الشمسية، نقوم بشكلٍ دوري بلمس المياه بأصابعنا وأيدينا، مقارنين درجة حرارتها بحرارة اليوم السابق، ونكتشف دوماً أنها أكثر دفئً وأجمل من اليوم السابق. حين يتجرأ الشخص الأول في نهاية المطاف على الغوص، ننسى كل ما هنالك على اليابسة. عندها لا يتذكر أحد الشوارع المغبرة في البلدة، ولا الحرارة الحارقة التي تحول الأسفلت إلى مادة لدنة، يمكن لأقدامنا أن تترك أثراً عليها. عندها تتلاشى مشاكل الحياة اليومية في اللحظة التي تغوص فيها في الماء وتقع عيناك على قاع النهر المغطى بالرمال والأعشاب؛ والتي تعيش حياتها وكأنه لا يوجد هنالك أي شيءٍ قد يهمها في العالم الخارجي. إنها موجودون من أجل نفسها فقط ومن أجل الأسماك التي تبحث عن اليرقات الطرية. نهر أونا، ذاك السائل، الذي يتدفق في اللانهاية، يحضرنا من أجل مسابقة انتظرناها طويلاً.

ربما نولد من جديدٍ في كل مرة نغوص فيها في المياه. نعود إلى كهوفنا البدائية مزينين بحشائش المياه؛ تعود ذاكرتنا إلى تلك اللحظة.

ربما تتذكر خلايانا الأشكال السابقة التي جسدتها قبل أن تتساقط الحراشف عن جلدنا ونبدأ أخيراً بالزحف في المياه القريبة من البر نحو اليابسة المروعة. كانت السباحة عبارة عن شكلٍ آخر لإعادة البعث والحياة الجديدة. أوه، كم كنا نشعر بالأسف اتجاه البلدات والمدن التي لم تكن محاطة بأمواج المياه المقدسة لأن كل ما تغمره المياه كان مقدساً وسحرياً، حتى التيارٌ الصغير الذي يمر عبر الشجيرات بالقرب من الحقل. كانت أنهرنا مقدسة في أعيننا وشعرنا أننا كنا مميزين مقارنةً بكل البلدات البائسة التي تفتقر لوجود مصدر للمياه، أو مقارنةً بتلك المغمورة بالتيارات العكرة والمتسخة. لم تكن قيعانها واضحة كالمرآة كقيعان أنهرنا، والتي كنا نغوص لرؤيتها كل يومٍ سبحنا فيه. من الصعب أن ننكر أن الحياة نبعت من المياه. إن الرابط الذي نشعر به اتجاه هذه القوة الطبيعية المانحة للحياة في كل مرة نقفز فيها إلى المياه لا يقارن مع أي نعمة أخرى على الأرض. ما نشعر به حين ندخل المياه ونتحد معها هو ما بحث عنه العشاق على مدى العصور.

الخيوط الخضراء

استيقظت مصدوماً من نشوة عدم الـــوعي، دون أي محفـــز خارجي واضح. كانت عيناي مملؤتين بأثرٍ من الظلمة، الخاصـــة والشخصية. فجأةً انغمست في الظلمة، بعيداً عن الكرسي الجلدي، وكان الذعر في فمي مكبوتاً مثل كرة بلياردو سوداء. ترنحت مثل شخصٍ يسير في نومه، أتحسس بيدي ما أمامي خوفاً من أن أقع أو أرطم رأسي. من غير الممكن أنني أسير وأنا نائم، لأن ذهني كـــان يعمل بشكلٍ يقظ. كان هنالك نتوءات في كل مكان، وثقـــوب وأشياء حادة. توقعت أن أكسر ساقي أو أفقأ عـــيني، ولكـــن لم يحصل أي من ذلك. وصلت إلى بركة كبيرة من سائل لزج. سرى الأدرينالين في جسدي. ازداد ثقل قدمي وســـرت مثـــل جـــيشٍ مهزوم. من يعلم أين كنت، في أي زمان/مكان، لأنه بعد بعـــض الوقت في القاعة المظلمة فقدت إحساسي بالوقت الخارجي، ربمـــا أكون داخل فم يسيل لعابه. حين وقعت على ركبتي، لمست يداي شيئاً طرياً قريبٌ جداً إلي. تعرفت إليه على أنه: عشب – معطـــر ونظيف.

***

لا يمكن لشيء أن يضاهيه. لا شيء آخر يملك إصراراً كإصراره، ولا حتى المطر. والذي يمكنك أن تشعر به على يديك مثل رمال الثكل المتساقطة من السماء. أشاهد العشب يتنفس تحت الثلوج. ويؤكد لي لونه أكثر من أي شيءٍ آخر على بقاء هذا العالم. مع أن معظم الكتب المقدسة تحاول أن تقنعنا بالعكس. على الرغم من أن العشب هو شعر القبور الأشعث. لا يمكن لذلك أن يقلل من قيمته في نظري. على العكس. أعتبره أكثر ترويعاً وثباتاً لأنني أعلم أنه سيغزو العالم يوماً. متصدراً باقي النباتات. في الواقع، كان يحكم العالم منذ بداية تعيينه في طليعة جيش فيلق النبات.

– *فيبروم كارو فاكتوم إيست* (صلاة كاثوليكية) – كان هنالك في البداية غيمة خضراء، ثم تجسدت الغيمة على شكل هيئة ملموسة ونزلت إلى الأرض. انقسمت تلك الهيئة عبر التوالد العذري إلى عدد من أشكال الحياة الصغيرة التي تزاحمت وتجمهرت على سطح الكرة الأرضية. من الصعب تحديد عمر العشب. فقد كان موجوداً قبل وقتٍ طويل من وجود الأشياء الإنسانية العابثة مثل اللغة أو الدين. لم يدخل العشب مفهوم الخلود لدى البشر سوى مع الشعر، والذي هو البداية والنهاية. ولكني أعلم أنه لطالما كان هنالك إشارة يساوي بين العشب والشعر. سيتم إلقاء الشعر الأخير من خلال أصوات ضعيفة التعبير من آخر حنجرة. ثم ستسيطر الرياح على العالم الصوتي.

يمنح العشب العالم جوهره: إنه شيء لا يمكن للنار حتى أن تدمره. أشاهده ينبت ويخترق قشرة التربة المحروقة. تحترق المنازل القديمة وتصدر الدخان في كل مكان حولي، تصدر صوت صدى انفجارات. في البداية تكون شاحبة، ثم تصبح داكنة وجدية في

إصرارها. رائحة التراب المحروق تكللها، وتتخلل الهواء كقوارب غير مرئية. حين أسافر، أشعر عادة برغبة للتوقف ومداعبة الهضاب الخضراء. مثلما يشبه الأقحوان الشمس بالنسبة إلى حشرة ذات قرنين تحاول أن تدفئ نفسها على بتلاتها الرقيقة وتتغذى على غبارها – أنا المسافر، أنتعش بسبب لون العشب.

حين ينتهي وقتي الدنيوي في المكتب، سأتحول إلى شخصٍ طائش، واحد من بين الحشود. سأكون جمعاً ومفرداً. سأتجرد من أي مرثاة للجسد أو أي بدائل أخرى خيالية للأسى، سأكون بسيطاً مثلك. وسيحصل أولئك الذين يكملون حياتهم دون لفظ اسمي على مباركتي، كما كنت مباركاً وأنا أستلقي بين العشب الذي أحاط بي ليحميني. كما تنشقت العطر اللاذع لسيقانه المقصوصة، مما أرسل تدفقاً للدم في كل شرايين تحت السماء الزرقاء المتوهجة.

قفزت سمكة روش وزنها رطلين من النهر أسفل المكان الذي كنت جالساً فيه على الضفة المرتفعة من نهر كرونسيكا، متأملاً السماء، مما جعلني أقفز من مكاني فجأة. يأتي السمك أحياناً وهو يطير خارج المياه هكذا حين يكون مُلاحقاً من قبل سمك ترويت كبير أو سمك الكراكي.

إن نهر كرونسيكا نهرٌ مسالم محاط بنباتات البردي المزهرة بشكلٍ مستمر، والتي كانت تنتشر على الضفاف وتحدث انطباعاً وكأنها أرخبيل. كان هذا المسكن المفضل لأسماك الكراكي لأنها تستطيع بسهولة أن تندمج بمجموعة نباتات البردي. سمكة الكراكي المختبئة هناك تشبه نمراً مختبئاً في دغل خيزران. من الممكن أن تكون

تلك السمكة الصيادة هي ما دفع سمكة الروش للانطلاق إلى اليابسة. بعد قليل من الوقت عادت السمكة المذعورة مرتعشة إلى المياه الباردة قبل أن أتمكن من إمساكها بيدي. جذب النهر الغيوم إليه وكأنه مغناطيس. أفشت أولى قطرات المطر التوتر المرتعد الذي انتشر في الطبيعة مثل صدمة كهربائية. هربت الأسماك إلى الأعماق لتتابع محاولاتها بالنجاة. بقي أثرٌ لجسدي في المكان الذي كنت أستلقي به.

* * *

أخيراً، ولله الحمد، حين خرجت من التمثيلية المسرحية للأعشاب، متخبطاً عبر باقات العشب الحقيقي، رأيت غرضاً مضيئاً يتحرك في يد الدرويش. تمكنت من إيجاد كرسيي مجدداً. كانت عيناه رماديتين وباردتين، وكانت ملامحه واضحة كالطين. مددت يدي أسفل الكرسي لأتأكد من وجود قارورة الجعة خاصتي. ثم مررت أصبعي على الندبة الحمراء على وجهي. كنت أثق بالدرويش، بالرغم من أن الأمر بدا للحظة وكأنه قد تخلى عني. على عكس معظم الأطباء النفسيين العصبيين، لم يعتبرني الدرويش شخصاً مريضاً عديم الجدوى كان عليه إنقاذه من الانقراض من خلال حشيه بالأدوية، التي كانت أسماؤها التجارية تذكرني بالسديم النجمي البعيد. لم أرغب بالطفو في آن - سيلان 3 وإندوسين بالثازار مثل كويكب عديم الإدراك. قبل مرحلة الاسترخاء والدخول في حالة غشية التنويم المغناطيسي العميقة، أرغمت نفسي على حفظ جملة: "عبر الشقوق في الباب الخشبي رأيت ثلجاً وسخاً شكلته رياح الخماسين على

شكل لوحٍ لتابوت". في حلمي، انطلقت على الفور في تابوت حجري مفتوح. سرت طبقة رقيقة من المياه الشفافة تحتي، وكانت وجوه رفاق السلاح القتلى المبتسمة مرمية في صفوف طويلة في الأسفل.

العلامة المائية

يجب على أحد ما أن يعمل جرداً للرياح التي تصفر طوال الوقت فوق المياه. يجب إعداد قائمة بجميع أنواع الأغشية والضباب الـــذي يتشكل في الأنهار، لأن الصباح فوق المياه مختلف عن ذاك الذي يكون فوق حقلٍ محروثٍ للتو. يجب تسجيل كل الفروقات الدقيقة في أفجر النهر التي تُرسم بيد ميقات أرضي سري وزاويـــة ميـــل المســـتوي النجمي. ما لا يُحكي عنه يكون غير موجـــود. إن قارنـــت هـــواء الصباح العليل الذي أستنشقه عبر نافذة منزل جدتي مع الهواء الجبلي الصحي سيخسر الأخير. يملك هذا الهواء شيئاً مميزاً، نكهة يمكـــن أن تأخذك عبر الزمن إلى عصر لم تُخترع فيه العربات. عبق الحرية الذي يتصاعد من حشائش المياه حسيٌّ وطاغٍ لأنه يحتوي علـــى إكســـير الشباب الدائم – خيمياء لا يمكن وصفها بشكل كامل لأنها لا نهائية كحجر التوفا، الحجر الذي كرس له صناع التوفا حياتهم على مـــدى آلاف السنين.

تبدو البلدة أحياناً كالبندقية ولكن مع ميـــاه عذبـــة في فصـــل الصيف حين يكون هنالك كثير من القوارب التي تبحر في قنـــوات النهر الفرعية وتمر تحت جسور كبيرة وصغيرة. يجلس ويســـتلقي في هذه القوارب الكبار والصغار على حدّ سواء. يثرثرون أو ينظـــرون بصمت إلى انعكاس وجههم على سطح الماء اللامع في نهر أونا، حتى

تقفز سمكة روش أو سنيب من الماء ويعود إليه مطرطشة الماء في الأرجاء، تاركاً دوائر متحدة المركز على السطح تندفع حتى تعود للمستوى الأصلي بسبب ملامستها الضفاف الخضراء. حين تبحر فوق المياه الصافية كالكريستال وتنظر إلى القاع المغطى بالرمال. ترى مشهداً خيالياً. وكأن المياه غير موجودة على الإطلاق، ولا الرمال ولا الأسماك، وينزلق قاربك ببساطة عبر الزمان والمكان. منفصلاً عن الأبعاد الأرضية المألوفة.

لا يملك الجسم البشري في الماء الهالة ذاتها التي يملكها على البر. بالرغم من أن عضلاتك المبللة بقطرات الماء تتلألأ، إلاّ أن وعي الجسد يكون مكرساً لهدفٍ واحد فقط: النجاة في النهر حين يسبح باتجاه الشلالات المزبدة بينما يدرك جمال قوة الماء بكليّته، وفي لحظة من أجل أن يتحول الماء لجزء من عضلاتك.

على أحدٍ ما أن يصنع كتيباً عن كل تلك الشلالات والقيعان الصخرية والمياه العميقة والسطحية والفجوات الطبيعية الخضراء والبقع الساكنة في نهر أونا. يجب أن يُطلق عليها أسماء تبدو خارقة للطبيعة، ولكن حتى ذلك لن يكون كافياً لندرك تيارات أونا بشكلٍ كلي. كما يكتب جوزيف برودسكي في *العلامة المائية*: "هنالك حسٌّ بدائي حين يسافر المرء على الماء، حتى لو كان ذلك لمسافة قصيرة".

ضفة النهر في الشتاء

إنه فصل الشتاء وقد ارتفع منسوب المياه حتى وصل إلى الدرجات الترابية في القسم المسطح من فناء جدتي. حفرتُ تلك الدرجات بمجرفة لأسهل الوصول إلى رصيفنا لأن الضفة منحدرة كثيراً. تنمو أشجار الخوخ على طرف الضفة. والتي تتكسر تحت الأقدام؛ الشجيرة الكبيرة نمت وحدها، وأعلى بقليل، تصل إلى الشرفة ذات المضخة، تنمو هنالك شجرة صنوبر وحيدة، مثل تلك الموجودة في أفنية المنازل الكاثوليكية. بسبب قربها إلى المنزل، فهي محجوبة عن الرياح وقلما تحصل على الشمس، لذا أشواكها شاحبة اللون، وصفراء تقريباً في بعض البقع، وتبدو وكأنها مكونة من الضباب ومن كآبة الشمال.

تظهر الأسيجة المتداعية من المياه التي تركت رمال صفراء على العشب تحت شجرة السفرجل. سطح الماء معكر لأن القناة أصبحت ضيقة كثيراً. تنهار الأمواج وتتدفق إلى فناء جدتي. إن الماء قريب كثيراً لدرجة أنه يغريك كي تغمس يديك فيه.

عنى الوصول إلى الماء هنا أنه على المرء عبور مركز المدينة وأن يصبح محط أنظار الناس الفضوليين. إن العيون مموهة بشكلٍ احترافي في الجسد البشري، موضوعة في أماكنها كالأزرار، وكأن أولئك الناس يتسكعون أمام نوافذ المتاجر والمقاهي. سرت في الطريق، رامياً

تحيات لبقة لسكان البلدة الباقين - "مرحباً، أهلاً، كيف حالك؟" - تضحية صغيرة مقارنة بما حصل لاحقاً. كيف يمكن لأي كان أن يحب أولئك الحمقى؟ بارك الله بحيوانات الخلد. فحيوانات الخلد أعز عليّ من معظم الناس.

استحوذ القلق عليّ حتى قبل أن أغادر شقتي. كنت أرتدي ملابسي بسرعة، منزعجاً لأن الشتاء قد أطال حضوره، وأخرني عن بدء رحلة حجي. كان طقسي هو لمس الشيء الحيّ والذي كان النهر، ومشاهدة الفقاعات الكبيرة التي تحمل حبات رملٍ من القاع، وكل تلك الفوضى التحت مائية المليئة بزوابع سائلة توقظ فيّ رغبةً واحدةً فقط: أن أتحول لسمكة تملك يدين ورجلين.

يتساقط المطر من مرزاب المنزل، والقبو مغمور بالمياه. حين تتراجع المياه، سيكون القبو مليئاً بالرمل والغصينات وأوراق الأشجار وكل ما يطفو على سطح المياه. المنزل مثل المنارة، ومن خلال نافذة غرفة المعيشة المليئة بالنور لايزال بإمكاني أن أرى وجه جدتي المغطى بالتجاعيد الدقيقة؛ ويمكنني أن أرى القسم الداخلي من الغرفة الذي رفض أن يطيع القاعدة الأفقية في ميزان المستوى، والآن هو مائل ويغرق ببطء في ضفة النهر الطرية.

في الشتاء، كل شيء مختلف، بما في ذلك سلوك المياه والأسماك. تكون المياه خضراء اللون ونصف شفافة وتكون في بعض الأحيان صفراء شفافة مثل بالون يعكس صورة مشوشة لإنسان أو حيوان أو شيء أو حدث. حينها تكون المياه في وضع الطوارئ، وتتصرف الأسماك وفقاً لذلك وقلما يمكن رؤيتها. حين تلمحها، تبدو شاحبة

وتعبة من البرد الذي يتغلغل حتى قاع النهر. في الأسفل، تكون النباتات قد فقدت كثيراً من يخضورها.

منزل جدتي عبارة عن قلعة لطيفة ذات مدخن، محاطة بالمياه. حين يكون هنالك فيضان، تقترب المياه من نافذة المطبخ كثيراً لدرجة أنه يكون بإمكانك أن تغسل يديك به. شجرة البندق الموجودة تحتها مباشرة تعمل كمرسى للقوارب. للأسفل أكثر توجد الضفة الرملية وعدة أنابيب لمياه المجاري مكسوة بالطحالب. كما يوجد فوق المنزل شارعٌ أسفلتي يؤدي إلى جزيرة النهر، والتي تملك ملعبين لكرة القدم. فوق الطريق، تصطف البيوت إلى جانب بعضها مثل الغربان الرمادية على قمم الأشجار الضبابي. يوجد هنالك أيضاً حواجز إسمنتية على الضفة الصخرية، وهي ذات هدف لم يُعرف لوقت طويل وسري. نما منها نبات العلق الشوكي ويتدلى منها مثل موجة مزبدة. وأظهرت لنا الطحالب مواهبها الرائعة على جدرانها، وكأن الشمال كان يسكن هنالك في تلك الأحواض الإسمنتية التي كانت ذات يوم تخزن السماد وغيره من النفايات. بالقرب من الأحواض كان الجدار الصخري منتصباً من التربة الضعيفة مع نبات الخرنوب، مبيناً مستوى الماء وتواقيع النهر من أيام سبقتنا بكثير.

منزل جدتي تحت الجدار الصخري والأحواض الشمالية. فناؤه موازٍ لها. تشكلت شجيرة ورود في مركزها، مع أنه مرتكز على سياجٍ جارنا رامو، الذي يصلح المسدسات والبنادق. تصبح شجيرة الورود مركز هذا العالم القاري في لحظة تفتح ورودها. نهر أونا على بعد حوالي 20 متراً منها. جدتي في المطبخ ذي الأرضية المائلة جالسة على سجادة صلاتها. حين تصلي، يعم المنزل سكونٌ تام. إنه منزلٌ

تفوح من كل غرض فيه رائحة النهر. حين تستلقي على خدك على المخدة، يمكنك سماع خرير الشلالات واشتمام رائحة الرمال، والأسماك وبلح المياه العذبة. أشعر بنبوءة عن غوصي لاحقاً، ويجعل ذلك كفي يتعرقان.

منزل جدتي متناغم مع المياه بشكلٍ كامل. إنه تناغم تمتزج فيه الصلوات العربية مع الأصوات الوثنية لكهنة الأسماك. جدتي سهلة الانقياد في سعيها لإيجاد ربها، ضائعة في شاطئ هذه المدينة المحاطة بالمياه الشتوية. ربها هو الإله الوحيد الذي أؤمن بوجوده. أستطيع رؤيتها على العتبة، تنجرف بعيداً من الضفة بينما يبدأ المنزل رحلته، مع أشرعته المصنوعة من كروم العنب ونوافذه التي تشبه عيون البشر. تصبح الضفة المقابلة بعيدة ويصل أونادزيك إلى عرض البحر. أدع المنزل يكمل رحلته، مع أنني أشعر بالأسف لأنني أعلم ما سيتحول إليه في نهاية رحلته.

حب الأطلال

كنا نتظاهر بأن الأطلال غير موجودة، ولكنها كانت في كل مكان. لا يمكنك أن تخطؤها. تحولت بلدتنا إلى معرض للأطلال، وكنا كل يومٍ نتقاضى المال من الأجانب لنأخذهم في رحلة مع مرشد لكي يقوموا بتصوير منازلنا المحروقة وأحيائنا المهجورة. كانت معاناتنا أسطورية، وكنا مكشوفين بتفاصيل أكبر من فيلم إباحي غريب. كانت بلدتنا تقع في المرتبة الثالثة لأكثر البلدات دماراً في البوسنة والهرسك. لم يكن ذلك مدعاة للفخر تماماً، ولكن لم يكن لدينا خيار سوى التخبط في الفوضى التي ورثناها.

مكتبة

لم يكن في وسعنا أن نتوقع من هذه المنازل والمعامل والجسور أن تُبنى لوحدها بشكلٍ سحري، من الماء. كان من المستحيل أن تبدل الشوارع المهترئة جلدها. مررنا من بين الأطلال وكأنها كانت نصوب تذكارية خاصة لحياتنا السابقة للحرب. هنا وهناك، في المنازل الصربية التي لم ندخلها لسنوات، كان يجد أحدنا صورة من أيامه في المدرسة، أو من رحلة كنا نتسكع فيها سوية بالقرب من نهر أونا. رأى شابٌ آخر وجه حبيبته السابقة، والتي بقيت في طرف العدو: حب مراهقة احترق بسرعة أكبر من سيجارة الجندي الذي قتل بالرصاص في مرج مكشوف. صدقني، تلك النفثات الثلاث كانت كافية لجعلك تبدأ بتدخين السجائر. إن الخوف هو ما يجعلك تدخن.

تم تدمير الجسر الحديدي في جهتنا من النهر، وتم رمي كمية كبيرة من الحصى هنالك لكي نتمكن بشكلٍ ما من عبور النهر، والذي كان يتدفق عبر مركز المدينة. تخيل بلدة فيها شارع رئيسي يدعى العقيد تيتو وتملؤه الأعشاب الضارة! يقول متناقلي الإشاعات أن حركة شيتنيك أبقت خنازير في مقهى البلدة، ولكن ذلك غير واقعي لأن مركز المدينة قريب جداً من البلدة ومن خطوط الجبهة، لذا كانت تربية الخنازير غير نافعة. على بُعد أقل من ثلاثين متراً من هنالك، تم تفجير جامع المدينة. كان مشوهاً كثيراً بسبب التفجير، تبعثرت أحجاره في كل مكان. المئذنة وقعت على كومة الأنقاض مثل تليسكوب. بقيت الكنيسة الأرثوذوكسية سليمة، منتصبة فوق بقايا الجامع. عاكسة توازن القوى قبل أن نستعيد بلدتنا. وجدت قطعة من الزجاج الأزرق والأصفر من الجامع في الطريق هنالك، وضعتها في جيبي.

أصبحت الأطلال مألوفة كثيراً بالنسبة إلينا. كنت أذهب إلى بقايا منزل جدتي في بازاردزيك كل يوم تقريباً. كل شيء كان متأثراً بالحرب باستثناء نهر أونا. جميع المنازل كانت منهارة. المنازل الأجد، والتي كانت مشيدة من الآجر، كانت محظوظة بأن جدرانها بقيت صامدة على الأقل. حفرت في بقايا منزل جدتي بيدي، مفترضاً أن ذلك كان مكان غرفة المعيشة. لأنني قبل بداية الحرب بيوم كنت قد تركت سلسلة ذهبية في صندوق هنالك، إضافة إلى صور ثمينة ورسائل وبندقية صيد من نوع ريمنغتون مع الكثير من الطلقات. كانت كل غرف المنزل الآن عبارة عن كومة كبيرة من الرمل والأحجار والإسمنت والحصى. لم يتمكن أحد بعد من تطوير آلية

للتأقلم مع هذه الظروف. لم يعد منزل جدتي ثلاثي الأبعاد، ولكن الفرع الأساسي من كرم العنب صمدت أمام الحريق وقد حماها المنزل الجديد الذي بدأنا بناءه في حديقة جدتي.

قام أعضاء من قوات الحزب الديموقراطي الصربي شبه العسكرية بالهجوم على البلدة من جهة ليبيك وهضاب غرميك عند الساعة 17:50 يوم 21 أبريل 1992. كان هنالك وحدات من جيش شعب يوغسلافيا متخفية فوق البلدة وكان من المفروض أن يقوموا بحمايتنا من "الأعداء الدخيلين". قيل إن سبب الهجوم هو حادثة إطلاق نار مزعومة تورط فيها رجال شرطة احتياط مسلمين - كان الرجال من قرية أرابوسا المعزولة، والتي كانت تملك أغلبية سكانية من المسلمين البوسنيين وكانت محاطة بالقرى الصربية في هضاب غرميك وضواحي بوسانكا كروبا النائية على الضفة اليمنى من نهر أونا. جُرح عدد من المدنيين الأبرياء في هذه الحادثة الخيالية، لذا شن جنود المشاة مدعومين بالمدفعية هجوماً على البلدة. فقط الأعمى لن يستطيع ملاحظة وجه الشبه الكبير مع الهجوم الملفق الذي شنته قوات الشرطة النازية، متنكرة بزي الجنود البولنديين على الأقلية الألمانية بالقرب من مدينة غليزفيتز والذي كان مقدمة لاجتياح بولندا ودمارها. تحولت لاحقاً أرابوسا إلى نقطة اعتقال، حيث كان يُحبس المدنيون في المنازل قبل أن يتم نقلهم إلى معسكرات الاعتقال أو إلى مقاطعة غير مأهولة حيث يطلق سراحهم هناك.

بدأت بملاحظة الأطلال حين بدأت تختفي. على الرغم من أن الأنقاض كانت مكومة على طرفي الشارع مثل الجدران العملاقة، إلا أن العين اعتادت على المشهد. اختفى كثير من الأطلال وانبثقت

المباني الجديدة – وكانت أبشع من تلك التي كانت هنالك قبل الحرب – من حطام المنازل السابقة مثلما تنبثق النباتات من الدبال الإشعاعي.

حين دخلت البلدة للمرة الأولى من جهة المشفى، ذاهباً عبر مركز المدينة نحو حي الشقق الخاص بي، شعرت أنني أختنق بسبب الإدراك البليد بأن البلدة التي كنت أعرفها تقلصت ببساطة. بدا جسدي حتى كبيراً وقوياً. لم أرَ أي وجه، مألوف أو جديد، على نوافذ المنازل. لم يلوح لي أحد. كانت البلدة فارغة وشبه ميتة، لم يكن يقطنها أحد. هكذا ستبدو الأرض بعد حرب عالمية ثالثة وبعد انحطاط الحضارة. لم يكن هنالك سوى ستارة وحدة تحركت لوقت قصير ثم عادت للحالة الجامدة، مثل جفون شخص يحتضر.

وصلت إلى حيي، وأنا غير مستعد نفسياً مثل غوليفر. كان هذا مثل حلم علمت لوقتٍ طويل أنني سأحلم به، ولكن الآن بعد أن أصبحت مضطراً لمواجهة هذا الإدراك لم أكن مستعداً. بدا الواقع الذي رأيته سريالياً بشكلٍ منفر. دعوني أوضح: أحببت السريالية في الأدب وفي الرسم. ولكن ما شاهدته أعياني؛ جسدي الكبير في مواجهة البلدة المصغرة. لم ألاحظ الأطلال بعد. تدمرت حديقة البلدة، ولكن كان مبناي مثل صحراء غوبي مع إطارات وشرفات، تآكلت درابزيناتها المعدنية بسبب الصدأ.

لو كنت مسؤولاً عن النثريات الطبيعية لهذا المشهد، لكنت اخترت تساقط مطر خفيف تزايدت شدته ببطء. سيكون الجندي في زي جيش البوسنة والهرسك واقفاً، يتل أكثر فأكثر أمام المدخل،

والذي يوجد فوقه لوحة مثقوبة بالرصاص كُتب عليها "89 شارع العقيد تيتو". ثم سيبدأ بالتقيؤ.

لم أنضم قط إلى رابطة الشيوعيون في يوغسلافيا. قمت مرة في حصة الماركسية بكتابة اسمي على لائحة الانتساب، ولكنني بدّلت رأيي وحذفته. لم أرد أن أكون في حزب يمكن لأي أحد أن ينضم إليه، دون أي اختبار لقناعاتهم السياسية. كان هنالك العديد من الكتب التي أبعدتني عن الإيمان الأعمى بنظام الأفكار ذاك. وحين رأيت القوميين ينضمون لرابطة الشيوعيين، أو شبه القوميين من مدرستي الثانوية، تدمرت أحلامي في وجود حزب كادر. فقط الساذج يمكنه أن يسأل كيف من الممكن لشيوعيي البارحة أن يصبحوا قوميين متحمسين. الجواب واضح: لم يكونوا شيوعيين يوماً.

الآن أصبح حي الشقق الرمادي والأخضر أمامي، ولا شيء سواه. ظهرت قطة على الشرفة لثانية أو ثانيتين ثم اختفت في غرفة المعيشة بسرعة. الآن يظهر إسقاط هولوغرافي لهوميروس، يحرك شفتيه: "أعطوني حسنة، أيها السيدات والرفاق والشباب... تبرع صغير، ليمنحكم الله الصحة... ليحمي أطفالكم..." بدا وجهه مثل الهولوغرام على تأشيرة شنغن، دائرة مقتطعة على القطبين الجنوبي والشمالي، تنتشر من قاعدتهما المثقوبة الأشعة مع دوائر صغيرة في جميع الاتجاهات. بدلاً من عينيه كان يملك زنبقتين ذهبيتين.

ستغسل الأمطار القيء بعيداً إلى المكان الذي تدمر فيه كل من الجامع والكنيسة الكاثوليكية ولكن الكنيسة الأرثوذوكسية بقيت صامدة؛ حين كنا نمل من الحراسة في منزل كاريلي، على جانبنا من نهر أونا، كنا نأخذ بنادقنا إلى الكنيسة ونستخدم صليبها النحاسي

لنتدرب على التصويب، لقضاء وقت ممتع. في النهاية، لم نكن نملك أي أسلحة ذات عيار أكبر مثل مدفع لندمر الكنيسة.

تحولت قطعة الزجاج الملونة إلى سري في وقت السكينة. إن وضعتها أمام عيني كان يمكنني أن أرى ما حصل، ما يحصل وما سيحصل: لن أرى مجدداً مثل تلك الأطلال الجميلة.

البقع العمياء

على الرغم من أنني علمت أن الدرويش يستطيع التلاعب بموقفي الأخلاقي خلال التنويم المغناطيسي، إلا أنني لم أكن خائفاً على الإطلاق، لذا أرغمت نفسي على العودة إلى أبشع وأصعب ذكرياتي – إلا ما كان في داخل كل منا، مع أنه لا يوجد القليل من الناس الذين يريدون الاعتراف بأخطائهم. أنا في متاهتي ولست خائفاً. لدي القوة لأشعر بالخزي اتجاه الآخرين. إن الخزي مخلوق قاتل له رأس ثور متعطش للدماء يجب تفاديه بأي ثمن.

يصل الدم النصف جاف من شعري الأشعث إلى ما بين أصابعي وتحت أظافري. ألمس عيني المحتقنة بالدماء ولساني مقبوض بين أسناني. يستلقي جارنا ميتاً بملابسه المدنية؛ لم يرد أحد أن يراه وهو يؤخذ من شقته إلى مكب نفايات البلدة. طلقة طويلة وذات صدى من مسدس TT ملأت السماء بالغربان وبالغراب الطائش الغريب. سمعت رجلاً يرتدي الملابس المموهة وهو يقول للآخر: "حصل على ما كان يستحقه. الآن أصبح حراً وبإمكانه الذهاب حيثما يريد". ضحكا بينما سارا بعيداً عبر النفايات. أعاد أحد الرجلين اللذين يرتديان الملابس الرسمية المسدس إلى قرابه الجلدي على حزامه، ثم أخرج مشطاً من جيب صدره وسرح شعره. نعقت سروب الغربان وهي تطير وكأنها تضع لعنة على الأرض. سيطرت عليّ الخرافات وخفت من

الطيور. شعرت وكأن هنالك شيئاً يمشي على جلد ظهري. لذا جمعت كتبي ووضعتها بسرعة في حقيبتي، لعنت حب الأدب الذي جعلني أبحث في نفايات البلدة عنها، ودخلت ظلمة الغابة، ملتزماً بالطريق الآمن، والذي نبتت فيه نباتات السرخس برائحتها اللاذعة.

هنالك طريقٌ واحد إلى خارج هذه المتاهة: عبر الذاكرة والحديث. يتعلم الشجعان التحدث عن ذاكرتهم بطلاقة. أولئك الذين أقسموا على التزام الصمت يجدون ملاذاً مختلفاً من ظلال الأحداث المروعة – "ستة أقدام تحت الأرض". غارغانو هو من الرجال الذين سيأخذون سرهم معهم إلى القبر.

* * *

كم كنا بعيدين عن الجرائم التي حصلت أمام أعيننا. كنا أحياناً نتحدث عن جنود كتيبة الفرسان "فيتزوفي"، الذين كانوا يقطعون رؤوس الأسرى الصرب في أرض المعركة. رأى بعضهم ذلك سبباً للإعجاب بفعالية هؤلاء الجنود العسكرية وبالشجاعة المطلوبة لذبح شخصٍ وقطع رأسه، ما يرفع عدد الأعداء القتلى الوطني. كان المتحمسون مثل هؤلاء، في أوكارهم الآمنة خلف خطوط الخطر، يعتقدون أن واقع الحرب يشبه لعبة الفيديو التي تدعى كونتر سترايك، بينما يشعر أولئك الأكثر براءة بالغثيان حين يرون صور قطع الرأس. نادراً ما كنا نتحدث عن *أحداث* كهذه، والتي لم تكن تُدعى في تلك الأيام جرائم حرب. وحده الصراع من أجل البقاء على قيد الحياة قد يبرر كل أنواع الهجمات، وتحديداً حين تكون محتجزاً مطوقاً من قبل ثلاثة جيوش من الأعداء يقاتلون ضدك: الصرب البوسنيون، الصرب

من منطقة نين في كرواتيا، والاستقلاليون من أبديك. *لا مجال هنا للإنسانية وللنهضة*، هذا ما اعتقدناه حينها، لا أذكر أن أحداً ما قد استخدم تسمية "جرائم حرب" والتي سمعتها للمرة الأولى على قناة سي أن أن بخصوص مخيمي اعتقال أومارسكا وكيراتيرم، وبعدها في القصص التي كانت تنتقل عبر الهمس في الأرجاء بعد سقوط سربرنيشا. لم يخبرنا قسم المعلومات والمعنويات في الجيش الحقيقة الكاملة حول سربرنيشا. قام *الأخلاقيون* كالعادة بقراءة آخر الأخبار الخاضعة للرقابة من مناطق القتال في بوسنة الشرقية. تضمنت التقارير بعض أرقام القتلى، ولكنها لم تكن قريبة حتى من الأرقام الحقيقة التي بلغت ثمانية آلاف رجل قتلوا بعد أن أسروا. وضحت بالتفصيل عدد دبابات العدو وغيرها من المركبات، أسلحة المشاة الخفيفة وكمية الذخيرة التي تم الاستحواذ عليها حين فر مقاتلونا من المناطق المطوقة في سربرنيشا وزيبا واتجهوا نحو المنطقة غير المأهولة قرب توزلا، كان يفترض بذلك أن يكون مواسياً. تم تقديم سقوط سربرنيشا على أنه هزيمة عسكرية قاسية، وليس على أنه جريمة حرب، مع أنه يمكنك أن تشعر بالمرارة في الكلمات وبين الأسطر.

لم أكتشف الحقيقة حتى نهاية الحرب حين أصبحت أسرار الجيش مكشوفة، ولكن حتى حينها كنت بعيداً عن إدراك مقدار سوء فاجعة سربرنيشا، والتي أعلنتها المحكمة الجنائية في يوغسلافيا لاحقاً على أنها مجزرة. تابعت حياتي الخاصة. كانت رؤيتي ضيقة و لم أستطع رؤية اللوحة بأكملها، فقط أجزاء منها.

سمعنا قصص حول تعذيب الاستقلاليين، المشهورون والظاهريون، ومن الصرب القادمين من كازين (من بين اثنين أو

ثلاثة ممن عاشوا في البلدة) المتهمين بكونهم جواسيس، في اللحظات التي كان فيها الوضع الراهن أمام الاستقلاليين صعباً وكنا على وشك الانهيار. قالت الإشاعات أن التعذيب كان يتم من قبل مجرمين محليين أو مستوردين في خدمة الشرطة المدنية. قيل إنهم كانوا يعرضون المساجين لصدمات كهربائية في الخصيتين أو يرغمونهم على أكل الملح، ليمنحوا بعدها غالونات من المياه التي عليهم شربها تحت التهديد بالموت. ولكن حتى تلك القصص لم تقرفنا تماماً لأننا اعتبرنا الاستقلاليين (تحديداً هم) والشيتنيك أعداء طبيعيين، والذين لم يظهروا أي رحمة في القتال يد ليد؛ أو ربما شهدنا أسوأ المعارك، حيث يكون تفكيرك محصوراً بالاقتراح الآلي: "سأنجو من هذا، سأنجو من هذا...".

كان هنالك أيضاً إشاعات حول أن الأسرى الصرب من معركتنا المحلية كوجلوك قد تعرضوا للضرب حتى الموت بالرفوش والكوابل الفولاذية من خطوط الكهرباء المنهارة. كنت قادراً على تخيل تلك الصورة، ولكن ضايقت ذهني لأنني لم أتمكن من رؤية المساجين وهم يتعذبون دون سلاح أو مساعدة في قبو بعيداً عن خطوطنا – حين تم تجريدهم من جميع ميزات العدو الشرير. كان التعذيب عمل الشرطة العسكرية، وقاموا بضرب الشيتنيك لكي لا يضطروا للذهاب إلى خطوط الجبهة. بعض المعذبين قاموا بذلك للانتقام من أجل شقيق أو بنت أو ابن ميتين. ولكنني لم أعرف أحداً منهم.

أنا أكذب، عرفت رجلاً كبيراً في السن كان يرى ابنه الميت في وجوه كل سجين لذا كان يضربهم. كان يذبل أكثر فأكثر مع كل

ضربة، يتلاشى مسرعاً للقاء ابنه. كانت قوة الرجل خارقة للطبيعة. لم يعلم طريقةً أخرى ليخفف ألمه، لذا كان الموت المخدر الوحيد الذي أراحه. كان هناك شيء ما يأكله من الداخل بسرعة كبيرة، وقبل فترة قصيرة من موته، تقلص حجمه من رجل بحجم تمثال ضخم إلى حجم فتى في المدرسة. المساجين الذي أبرحهم ضرباً كانوا موتى أيضاً. انتهت دورة حياتهم. يجلسون جميعاً في دائرة في الحقول السماوية في موطنهم وأرجلهم مثنية على الطريقة الهندية – قوزاقيين يدخنون التبغ المنزلي وينظرون إلى الأسفل عبر السماء؛ الزابورازيين، الذين كان دينهم الوحيد هو اللحم والدماء. والبراندي بالطبع، واسع الانتشار ولا غنى عنه. حين يضحكون، تشرق الشمس ويهطل المطر.

خلال خدمتي في قاعدة إمداد عسكرية، أراني أحد الرفاق العسكريون حظيرة تم فيها تعذيب وقتل الصرب من كوجلوك، ثم دفنوا في مكان قريب، حيث نُبشت جثثهم لاحقاً ونقلت من أجل تبادل الأسرى، أو تبادل الجثث في الواقع. لا أذكر أنه كان هنالك تبادل أسرى أحياء أبداً في منطقة قتالنا.

في الحقيقة لقد نمت ليالٍ عديدة بالقرب من حظيرة الطائرات المخصصة للتعذيب والقتل تلك. كنا قريبون من محطة تناوب في الأعلى، لذا كنا محظوظين بقدرتنا على التقاط قناة كرواتيا الوطنية. كنا نتابع في بداية الأمسيات برنامج الألغاز *نامبرز آند ليترز*. كان المقدم يلوح بيده بشكلٍ مسرحي ويصفق الجمهور حين يفترض بهم ذلك. في كل مرة كان يدير فيها أحد المشاركين في البرنامج دولاب الحظ، يقول جندي على السرير العلوي "دولاب الحظ يدور، أحدٌ

يخسر وأحدٌ يفوز"، ثم يبدأ بدندنة لحن اخترعه في غبطة اللحظة. لم يؤثر ذلك بالمضيف ذي الذراعين الحيويتين والبدلة الأنيقة، ولا بالجمهور المؤلف من أشخاص مصابين بسن اليأس ودولاب الحظ الذي يدور كل خميس، جالباً الطمأنينة للمسنين المجهولين في المناطق الكرواتية. كانت السكينة التي يرسمها على تلك الأوجه تفاجئني: رأيت فقط رضا الثور الذي يشعر به عند الاجترار؛ بلادة تتجاوز الإبداع.

بعد الحرب، كانت حظيرة الطائرات تستخدم من أجل تربية الماشية وتسمينها. كان ذلك يشعرني بالغثيان، ولا يمكن للماء أو حتى لمرور السنوات غسل الدماء من ذلك المكان. فكرت أن للماشية دور في تعذيب وإعدام أولئك الناس. ولكن لم تدم تلك الفكرة طويلاً لأن النفور الذي شعرت به تحول إلى جنون مخيف: حتى أصبح إطفاء عقلي هو الحل الأفضل.

لم أدخل تلك الحظيرة أبداً – تحولت فيها دون وعي، وأحياناً شبه واعٍ. بالنسبة إليّ، كانت مكاناً مدنساً بموت أعدائي، وقد يكون موتي في ذلك المكان أيضاً، احتمال صغير كنت أخشاه. على بُعد بضعة مئات من الأمتار كانت تدور معركة كوجلوك. حيث كان موتي ينتظرني على الهضاب العارية، رغبت كثيراً بالفرار، ولكني شعرت بالخزي. الموت في كل مكان ولا ينحاز لأي جانب، لا يهمه أمر العرق ولا السياسة. يترك أثراً من الدماء ورائحة الجثث خلفه. هذه هي عيناته، عمال فاقدون الوعي يصبون الرصاص المصهور على نخاعك، يسرقون أنفاسك ويحولون رجليك إلى جذوع أشجار مدموجة بمركز الأرض، كي لا يكون هنالك مجال للفرار؛ كما هو

الأمر في حلمٍ مزعج. كانت الحظيرة مكاناً محظوراً، وأعطيتها قيمة كبيرة.

في تلك الأثناء صفق الجمهور في برنامج *نامبرز آند ليترز* بحماس، وشعرت أنني أريد أن أغوص في التلفاز وأنزع دولاب الحظ وأستخدمه كدفة توجيه، أو رشاش أو شوريكين لأقطع رؤوسهم. كانت الدماء تتلألأ تحت أبواب الحظيرة مثل شراب الفواكه المحلى على كعكة. الهواء المستنشق تحول إلى غيوم صغيرة من البخار. أشعلت سيجارة، لملمت أفكاري وتنشقت هواء الجبل البارد. كانت الكلاب الشاردة تعوي في غوميلا، بينما أبحر القمر المسلول في السماء فوق كوجلوك. كنت مليئاً بالحياة، لم يكن هنالك أي رعبٍ قد يفسد متعة ذلك الشعور بالنسبة إليّ.

أثناء هجومنا الكبير التقينا بامرأة في قرية يسودها الصرب. لم ترد أن تهرب مع بقية السكان وقررت البقاء في المنزل. تم حرق المنازل الموجودة في بداية القرية الثرية لأنها كانت تعود لمسلمين. إنه أسلوب الحرق المتعمد الذي اتبعه المطهرون المحليون المسؤولون عن نقاء شعب الله الصربي المختار. لم أكن أملك وقتاً للتفكير بما قد حصل للسكان السابقين.

كانت المرأة بمنتصف العمر وذات صحة جيدة، ذات وجنات متوردة مثل تفاحتين تحت حجابها المربوط. جلست إلى الطاولة في فنائها وكأنه لم يكن هنالك ما يحصل. الذعر قد هدئها بشكل كامل، التقينا بها عن طريق الصدفة لأن المهمة كانت تتضمن دخول القرية من عدة اتجاهات، لذا كان هنالك الازدحام المعتاد والارتباك حين التقت وحدات من ألوية مختلفة مع بعضها.

سمعتها تتكلم بينما كان بعض الجنود يتجولون في مكان قريب: "هل أنتم صرب أيضاً؟ أنتم كذلك، أعلم ذلك، أنتم فقط لا تريدون أن تقولوا أنكم صرب..." مما أثار سخط جنودنا البوسنيين.

لست متأكداً إن كنت قد سمعت صوت الرشاش بينما كنت في مجال رؤيتها أو حين أصبحت خلف الإسطبل، مسرعاً لكي أنجز هدفنا وهو الحصول على الأراضي المرتفعة. لا أذكر - ربما حتى رأيتها تنهار وتتشنج على غطاء الطاولة المشمع، ساحبةً الصينية المعدنية مع القهوة إلى العشب الأخضر الزاهي المغطى بندى الصباح وموقعة الطاولة، ولكن رفض بعدها ذهني أن يحتفظ بتلك الصورة عن الجريمة. في لحظات كهذه تتسارع أفكارك بسرعة مئة ميل في الساعة، وكل شيء عدا هدفك المباشر يمر بلقطات سريعة في كابوس اليقظة ذاك.

بعد إطلاق النار من ذلك الرشاش، تابعنا طريقنا نحو التلة خلال ظلمة سبتمبر التي خيمت على المكان. بينما كنا نمر بالقرب من الكنيسة الأرثوذكسية، سمعنا صوت إطلاق صاروخ من راجمة صواريخ من نوع واسب وصوت انفجار. ظهر ضابط وحدة تخريب وأخبرني أنا ورجالي أن نختبئ لأن هنالك قصف من مدفعية تعود لقوات شيتنيك، على الرغم من أنه كان من الواضح أنهم ذاتهم يحاولون تدمير الكنيسة بصواريخ واسب. أخيراً، حين وصلنا إلى قمة التلة دون التعرض لكمين، انتشرنا وحفرنا تحصينات. لم يهاجمنا الأعداء لأنهم كانوا قد خرجوا من هنالك. بقينا في المنطقة لعشرة أيام. كان هنالك كهرباء في المنزل، وتابعنا القناة الوطنية الكرواتية وكأننا كنا منومين مغناطيسياً. من حيث الذخيرة والأسلحة والطعام

والسجائر، كانت تلك الأيام الذهبية من الحرب. أذكر الشيفرة التي أرسلوها إلى جهاز الموتورولا خاصتي: 801، والذي عنى ضرورة الانسحاب الفوري. اختفت القرية خلفنا في الظلام. كانت الفليفلة النضرة متدلية وهي ناضجة في الحدائق المحيطة بالحقول، منتعشة بسبب التربة الخصبة والرملية. كان لونها يشبه بشكلٍ مؤثر لون خدود المرأة الفلاحة قبل أن يطلق النار عليها.

مرثاة توشيبا

مكتبة الإسكندرية الخيالية الخاصة بـــي، تلك التي يجـــب أن تكون مؤلفة من أشياء صغيرة، وطقوس بومية غير مؤذية وأجزاء من الذاكرة، كانت تحوي أيضاً مسجلة قديمة من نوع توشيبا. اشتريتها في وقتٍ ما من أواخر الثمانينيات، وكانت تلـــك المســـجلة ذات الرأسين الأولى من نوعها مع أزرار في الأسفل، مباشرةً تحت مكان الكاسيت. كانت خفيفة وجيدة الصنع، لم تكن طويلة أكثر مـــن اللازم أو كبيرة، وكانت مصنوعة من البلاستيك الأسود. كان فيها راديو يمكن لضوئه في الليل أن يأخذني إلى أماكن بعيدة مثل ريغا أو فيلنيوس، مدنٌ لم أعرف موقعها بشكلٍ مؤكد في تلك الأيام. كانت أسماؤها تدل على أنها أتت من كوكبٍ آخـــر، وأجـــزاء البلطيـــق والأجزاء غير السلافية من الاتحاد السوفييتي كانت كذلك حقاً، عدا لاعبـــي كرة السلة اللتوانيين في الفريق السوفييتي. كانت المســـجلة تتقدم في العمر مثل الأجهزة الأخرى، في حين كان التصميم يتطور وتطورت ميزات أسرع وأكثر جنوناً. كانت الرأسمالية، التي لا زالت بعيدة وخلف جدار برلين، تصنع العجائب التي كنا نـــرى آثارهـــا بشكلٍ متأخر، حين كانت قد فقدت قيمتها العاطفية بالفعل بالنسبة إلينا. كنا تائهين في بقايا حياتنا وحياة الآخرين، في محاولاتنا لإعادة بنائها ولاكتشاف الكمال والسعادة البسيطة. لذلك تملـــك حقبـــة

التسعينيات قوّة تهيمن علينا مثل الذاكرة الشمولية. أنا واحد، ولكن هنالك الآلاف منا - الأشخاص المكسورون غير القابلين للانكسار.

يظهر فيلم *بليد رانر* لوحات إعلانية ضخمة لشركة تي دي كيه على المباني في مدينة مستقبلية تغمرها الأمطار باستمرار. سأذكر تلك الشركة دوماً بسبب كاسيتاتها التي تبلغ مدتها 60 و90 دقيقة. من المؤكد أنه هنالك كوكب سري في مكان ما، عالم من الأشياء المفقودة والأغراض التي لم تعد رائجة، تنبض إعلاناتها بضوء النيون. أدرك الآن أن مسجلة الكاسيت تلك ستعرض في مكان بالغ الأهمية في مكتبة الإسكندرية الخيالية خاصتي. لطالما كنت سريعاً كثيراً في التخلي عن الأشياء المادية، ولو علمت ما كان سيحصل لحملتها معي خلال المياه والنار والطين. ولكن لا، تركتها في زغرب في يوم 15 أبريل عام 1992 وعدت إلى وطني، الذي تمكنت منه قبضة الحرب بالفعل.

هوجمت البوسنة الشرقية من قبل وحدات من الجيش الشعبي اليوغسلافي المؤلفة من مجموعات مسلحة تسليحاً جيداً من المجرمين القادمين من صربيا بحجة مكافحة التطرف الإسلامي ("القبعات الخضر") وللحفاظ على يوغسلافيا. رأيت بأم عيني اللاجئين من زفورنيك واقفين حاملين أكياساً ورزماً في مرأب سيارات جامع زغرب. كان أولئك الناس من لحم ودم، اللاجئون الأولون الذين تم إرسالهم إلى العالم الخارجي مثل رصاصات الخطاط في سماء الليل، متناثرين في كل الاتجاهات. ذهبنا إلى الجامع لنقنع أنفسنا بما سمعناه من مراسلي راديو سارايفو الموجودين على أرض المعركة. لم يعلم

telegram @ktabpdf
مكتبة ٣٦٢

الصحفي القادم من بلدة فوتشا في شرق بوسنة من كان يطلق النار على من هنالك. كان الارتباك منتشراً. بالنسبة إلى المدنيين الطافين في مياه نهر درينا وتشيهوتينا، كانت الحرب قد انتهت دون شك لأنهم كانوا أمواتاً. خرج الناس في مسيرات من أجل السلام والحفاظ على يوغسلافيا في سارايفو قبل عدة أيام. سار عمال المناجم الحمقى وأفراد الطبقة السفلى الحضرية حاملين أعلام يوغسلافية وغنوا أغان اشتراكية ما دفعه قناصي شيتكين المتخفين في فندق هوليدي إلى إبادتهم. كان عمري خمسة وعشرين عاماً و لم أشعر بأي شفقة اتجاههم. أياً كان من يريد الموت كأحمق حصل على دعمي الكامل.

على أرض المعركة في أواخر خريف 1994، حين نزفت أوراق الأشجار بألوان دافئة مع الرجال، أنقذت مسجلة كاسيت من نوع سانيو من منزل كان على وشك الانهيار وهو يحترق - النار هي المعنويات الجيدة في زمننا. بقيت المسجلة معي لمدة أربعة عشر عاماً.

كانت معركة سلوفر مليئة بالطين والمطر، والمطر والطين، مثل الجبهة الروسية في أواخر الخريف قبل سقوط الثلج وبدء البرد القارص. كل شيءٍ كان يغوص في الأرض، النباتات تنحني وتموت، ابتلع المستنقع الرمادي كل أملٍ في شروق الشمس مجدداً. كانت جبهتنا أسوأ من الجبهات الروسية في الكتب لأننا لم نملك سهوباً واسعة لننسحب إليها؛ ولكن كانت تلك الجبهة في داخلنا. حين أفكر بها أشعر بالقشعريرة تسري في جسدي، ولكن أصبحت لاحقاً مصدراً لطيفاً للدفء - مدفأة لم أشغلها ولكنها دفأتني مع ذلك. ثم يظهر روتجر هور في معطف جلدي طويل، بينما تهطل الأمطار على

الخط الأمامي، وكان يقول بشكل مكرر لنا وهو يشق طريقه بين الشجيرات المليئة بالأشواك: "لم يحن وقت الموت، لم يحن وقت الموت...".

حتى بعد أن توقفت عن استعمالها، بعد وقتٍ طويل من الحرب، كانت لا تزال موجودة بين الأغراض الصالحة للاستخدام حولي مثل أثر مقدس يذكرني بماضٍ ما - ماضيّ أنا. غلافها البلاستيكي كان قد ذاب من جهة بسبب حرارة النار. جرحُ الحرب ذاك عنى أن الأمر قد انتهى بها في القمامة في الجهة المنحدرة من البلدة بعد أن انتقلت.

أثناء حلمي المكسر، رأيت مسجلة التوشيبا أمامي. كانت محطمة ومرمية على الطاولة، وقطعها مثبتة بالأسلاك فقط. كان يصدر من شاشتها ضوء أزرق خافت، وكانت تعمل من الداخل وكأنها لم تكن ممسوسة، مع صفوف من الصمامات الصفراء التي بدت مثل محطة تحويل تيار. كانت النصب التذكارية المنعزلة للتكنولوجيا القديمة مثل مدن الأشباح في براري الغرب - هكذا كانت تبدو من الداخل. كانت مكسورة من الخارج ولكنها تعمل. ألم نكن كلنا كذلك بعد الحرب مباشرة؟ غير واعين بأننا كنا متضررين بسبب التآكل في كل مكان، ولكن مملوئين بالأدرينالين الجنوني الذي طغا على الناجين.

إن المسجلة وكثير من الأشياء الضائعة الأخرى، خصوصاً تلك التي لن تكن مادية - المشاعر الضائعة والذكريات المفقودة من ظل لعبة ما في الشفق البعيد قبل عشرة آلاف ليلة - هي ما دفعني لبناء مكتبة الإسكندرية الخاصة بي. هذه هي مهمة أمين أرشيف اليأس.

حين أضع شيئاً جديداً في المكتبة تغلق أبوابها بشـــكل أوتومـــاتيكي. يمتلئ ماضيّ ويتقلص فراغ العالم. تتلاشى المكتبة من مجـــال الرؤيـــة بشكلٍ غامض، كما يليق بها، ويمكنني حينها أن أكون أمين أرشـــيف ماضيّ السعيد إلى حد ما.

القنطور

في حلم مختلفٍ تماماً، كان ثلجٌ أبيض كثيف يتساقط. كنت وأختي نمشي عبر البلدة. كانت هادئة وسَهُل علينا أن نعرف أنها بلدتنا، ولكن على الرغم من ذلك كان هناك شيء مختلف قليلاً أو غير اعتيادي، كما هي الأشياء عادة في الأحلام. وقفنا في الساحة المركزية، التي لا بد أنها كانت مزوّدة بتدفئة تحت الأرض لأن ندف الثلج كانت تذوب فور ملامستها أحجار الأرضية، التي كانت ملوّنة بشكل جميل. كانت الساحة رائعة، فسيفسائية معقّدة وفيها أعمدة مصابيح ومقاعد قديمة الطراز على الأطراف. نظرت إلى ألوان البلاطات الكبيرة وتعجبت كم كانت غنيّة وجميلة، وبدت ناعمة وكأنها شيء حيّ بإمكانه امتصاص الرطوبة كإسفنجة إذا أردت منه أن يفعل ذلك. مرّ قطار مبتهجٌ ملوّن عبر الشارع الرئيسي الذي يعبر إحدى جهات الساحة، كان يطلق بوقه بسعادة عبر نفثات الثلج الناعمة.

تكلمنا عن مدى جمال بلدتنا وكيف أننا لم نلاحظ ذلك من قبل، عن جماليّة الساحة الملوّنة والقطار، ولكننا لم نكن مندهشين للغاية – فقد تقبلنا البلدة كما هي عليه الآن. بقينا في الساحة. كانت أختي ترتدي معطفاً ذا مربعات من قماش شتوي دافئ، أنا لم أستطع أن أرى بشكل جيد لأني كنت أمتص كلّ الألوان، الثلج والدفء،

telegram @ktabpdf
مكتبة ٣٦٢

بالرغم من أنه كان يوماً شديد البرودة. تسرب شعور غامر بالدفء والراحة إلى جسدي. في حلمي كنت واعياً تماماً أنه حلم، ولكن ذلك لم ينقص سحره أبداً. ربما همت قليلاً ونسيت لثانيتين أو ثلاثة أنني أحلم. ثم ذهبت بمسار الحلم إلى المكان حيث تبدو بلدتنا مضاعفة الجمال. أعاد ذلك المكان إلى الأذهان البلدة المرموقة الصغيرة في زمان السلم في أواخر السبعينيات أو بدايات الثمانينيات، ولكنه كان يملك شيئاً من مستقبل ربما يأتي يوماً.

من دون المداخن ستكون السماء مفتوحة للطيور والآلهة الوثنية والطائرات. في البلدة القديمة سيكون هناك أشكالٌ من أليس في بلاد العجائب وغودزيلا وكينغ كونغ وفليبر وغيرها من الأبطال الخياليين بدلاً من الأسلحة الثقيلة ومدافع الهاون (الهاوتزر) التي تعود إلى الحرب العالمية الثانية. ربما سيكون أونا صالحاً للملاحة لفصل واحد من السنة (أما لباقي الفصول فسيكون الأمر سيان، شفاف وأخضر) وستعبره العبارات المليئة بالكآبة بكسل. وهذا ما سيتيح المجال لقريحة الشعراء لنظم القصائد عن القوارب والعبارات والمياه والرحلات الطويلة، وهذا ما سيجعل روح عالم نهر أونا ذائعة الصيت بين بحارة العالم أجمعين.

أنا الآن بانتظار تساقط الثلج، وأستطيع رؤية بلدتي تجمع بين سراييفو وزغرب ومدينة مشرقيّة بعيدة لم أزرها من قبل إلا في أحلامي. وعندما تساقطت أول ندف الثلج من السماء أغمضت عيني.

عندما تكون في بحث عن المفقود، تصبح مؤرّخاً للأحلام. ولذلك كان عليّ أن أكرّس نفسي للأحلام، ففيها أستطيع تصميم

كل شيء غير موجود في الحقيقة لكي أصفه في حالة اليقظة على أكمل وجه. وحتى عندما تكون أحلامي على علاقة بالإسقاطات المستقبلية، فإني في طبقات أعمق أحلم بالماضي. لم يكن لي خيار وكنت أبحث عن الإلهام في كل مكان.

سميث الفادي، والمعروف باسم:
مرشد الغيوم

رأيت بعيني القنبلة اليدوية تسقط على بعد ثلاثة أمتار أمامنا. كان عليها زعانف بلاستيكية للموازنة على ذيلها، كان لونها أحد درجات اللون الأخضر بدت كسمكة غريلنغ عسكرية، بطول 20 سنتيمتر، وقطرها كان متساوياً مع طولها. للحظة بدت وكأنها معلقة في الهواء، توقفت الأوراق عن التساقط من الأشجار أو توقفت في الهواء، بينما كنّا نحن نقفز فوق الأرض كغزلان تحاول أن القفز إلى أبعد ما يمكن. قُبض علينا في ظل غابة في تشرين الأول عندما تغيّر الأشجار ألوانها كوجه رجل فانٍ مريض تعب من القوقعة التي تغطي جسمه وينتظر أن ينقضي الأمر. هكذا انتظرت الأوراق أن ينتهي العرض وأن ينطفئ النور على يد أحدٍ ما أو شيء ما أعظم منا، بعدها ما من شيء سيعود إلى طبيعته السابقة، على الأقل فيما يختصّ بالندب على أجسادنا وعقولنا. وفي لحظة سقطنا على الأرض، وانفجرت القنبلة اليدوية، وتحوّل كل شيء إلى أشلاء. انقلبت الأرض رأساً على عقب، قطع الجذور التي كانت تبدو وكأنها مصابة بالتهاب المفاصل انتشرت في كل مكان، الرجال أمامنا كانوا متمددين على الأرض، وتجههم وجه السماء. ثم سمعت صوتاً بالكاد يُسمع فوق رأسي ونسمة هواء رفعت شعري عن رأسي، كل شيء تحوّل إلى السواد وتساقط

التراب مطراً نحو الأسفل. لم أصاب بأي شظيّة، لكن الرفيق الذي كان إلى جانبي كان قد أسلم الروح. رأيت ظلاً طويلاً ثلاثي الأبعاد وأنا ألقي نظرة عليه وعلى معطفه المطري الذي مزقته الشظايا، سار الظل ممزقاً عبر الغابة وبدا أن الأمطار التي قد تساقطت في الأيام الثلاثة الماضية قد بللته. بدا لي الظل أكثر واقعية وقوة من سوبرمان وباتمان وسبايدرمان معاً، بينما كان يندفع عبر ظلال الأشجار بيديه المجيدتين المليئتين بالشظايا لم يعر اهتماماً إن رآه أحدٌ سواي، في تلك الأثناء عاد المطر للهطول هطل علينا نحن المتمددون أرضاً وعلى الأشلاء وعلى جثة ذلك الجندي الذي غادره ظله الممزق للتو. في جزء من الثانية، وجد الموت موطئ قدم له في الغابة، وأوجد مسارات لدمائنا على ممرات الغابة ذات الطين المصفر، عندها غطانا الضباب وأخفانا عن أعين الأعداء.

كنت أعلم أنه سميث الفادي، الذي ساعدني لمرات لا تعد خلال الحرب، فإليه يعود الفضل لبقائي على قيد الحياة أسرد ما أسرده هني البال وأكتب بيد ثابتة، أنا مدين له بشجاعتي ومآثري في وقت الحرب، التي كنتيجة لها حصلت على علاوات متعددة. ولكني إلى الآن لم أكرّم بالميدالية الأسمى، الزنبقة البوسنية الذهبية، لأن قائد الكتيبة كره جرأتي وأنا لم أعرف طريقاً لأتملقه.

عندما كان الخوف يتملكني؛ ذلك الخوف المطلق الذي يستحوذ حتى على ذرّات النتروجين في الهواء، كان يظهر ويحررني من الخوف من الموت، وحينها أصبح خفيفاً كطائر الطنّان وسريعاً كفيروس. لأجل هذا قررت أن أبحث عنه مستخدماً عنوان الإرجاع على الرسالة التي استلمتها منه بعد الحرب والموقّعة باسمه. وجدت الشقة في

شارع إميلي ديكينسون 5 في الطابق الثالث في مبنى رمادي بدا لي كحمامة مريضة، كما كان سيتخيله فيرنارد ليجير. كانت شقة تناسب قديساً لدين غير موجود، قديساً كان له الحق في كل شيء، لكن بالرغم من ذلك لم يشيّد له أحد تماثيل ذات ذوق هابط كما تلك التي تقف في الكنائس الكاثوليكية التي أشعرتني بالغثيان عندما كنت صبيّاً صغيراً، بسبب الخوف من الموت الذي فاحت رائحته من جوفها البارد. بقايا عظامه لم تكن موضوعة في صناديق ذهبية وفضية كذخائر القدّيسين. كلما أرى قلادة تحوي شعرة قديس أو أية ذخيرة أخرى، أدرك بحزنٍ أنه لم يبق سوى القليل من روح الأديان على هذه الأرض. يا لهم من بدائيين أولئك الناس الذين يؤمنون أن ذراعاً ذات يد مغطاة بالذهب وأصابع نحيلة بشكل غير طبيعي وأظافر ذهبية يمكنها أن تمتلك قوى خارقة لفعل أي شيء ما عدا الوقوف ثابتة في صندوق زجاجي بطاقة حركيّة أقل من أيّ هزّاز هلامي صنع في الصين.

في كل مكان وُجد جبر الفوضى: في داخل الملابس، والأوراق والأغراض المتناثرة. دخلت إلى الشقة، التي أهمِلَت في عجلة كبيرة. كانت جدران مكتب سميث مغطاة برسومات رماديّة. رسومات لعشرة أشكال من الغيوم: الأشباح النحيلة للغيوم السمحاقية الطبقية، والغيوم السمحاقيّة التراكمية كخرافٍ صغيرة، وطبقة كالحجاب من الغيوم السمحاقية العليا، وغيوم ركاميّة متوسطة (قطع قماشيّة بيضاء ورمادية، لفافات وأكوام مدوّرة)، والغيوم الطبقية المتوسطة (الغطاء الغيمي المزرقّ)، والمزن الطبقي الجالب للمطر والثلج والبَرَد، والغيوم الطبقيّة الركامية (قطع قماشيّة مبيضّة مع بقع داكنة)، والغيوم الطبقيّة

التي تجلب رذاذ وحبيبات الثلج، الغيوم الركاميّة (التلال والقباب والأبراج)، والمزن الركامي العالي (الجبال والأبراج الهائلة) - الغيوم الأكثر جدارة بالذكر في المساء، التي طاقتها تساوي طاقة عدة قنابل ذرية، وكل أشكالها وأنواعها. تم إيضاح هذا الوصف الوجيز للغيوم بكتابات يده.

وقت تشكل الغيوم والمدة تم تسجيلها بعناية على لفافة من ورق بعرض مترين وتم لصقها من السقف إلى الأرضية على طول ارتفاع الحائط. لم يكن لدى سميث غرفة نوم لسبب بسيط وهو أنه لم يكن ينام أبداً. لم يكن كائنٌ برتبته بحاجة إلى النوم - كما نحن الفانون بحاجة إلى ذلك. حاولت النسمات عبثاً أن تقود الستائر إلى داخل الغرفة، ضاربة الظلّة الخشبية الفينيسية بالواجهة قبل دفعها مجدداً باتجاه النافذة. بينما تغطت أرضية الحمّام بكومة من الفضلات التي لا رائحة لها إطلاقاً. لقد تصلّبت الفضلات وكانت بارتفاع ستة أقدام، على شكل هضبة متناظرة من البراز، الذي امتد من كرسي الحمّام إلى حوض الاستحمام. كان هناك كثير من قطع القطن المبللة بالكحول على الأرضية، الأمر الذي وضّح أنه كان ينظف جسمه بواسطتها لأن صنبور الاستحمام كان منزوعاً من مكانه وتم إيقاف المياه بواسطة شريط لاصق. هذا كل ما تبقى من سميث الفادي: غيوم وبراز. ما من رسائل على باب البرّاد تحتها مثبتات مغناطيسية.

رأيت في البراد مرطباناً يحوي في داخله يرقة من نهر أونا صفراء مجمّدة. جلست على الأريكة ومددت يدي إلى كومة الكتب التي على الأرض، نفخت الغبار عن صفحة أحد الكتب وبدأت أقرأ "حارس حقل الشوفان". أعتقد إنه يتحدث عن نهاية العالم أو شيء

من هذا القبيل. استحوذ الهذيان الاعتيادي بعد الظهر على الناس الفقراء ومتوسطي الحال في شققهم، حيث يشكّل التلفاز باباً إلى الإدراك، وإلى كل من الجنة والنار. لكن الجميع ظلوا يدّعون أنهم بخير. ما من أحد فتح النافذة عنوةً وصرخ بأعلى صوته. انخفضت حدة الريح ولمدة ثوان قليلة حلّ صمت مطبق. كانت أولى القطرات صامتة كوقع أقدام قطة. بدأ المطر يطلق نفّاثاته الخلفيّة البيضاء بقوّة وسرعة أكبر. في الشقة التي تقع مقابل شقة سميث كان هناك رجل مسنّ يقوم بأشياء وهو يشاهد صوراً لفتيات مراهقات شبه عاريات على الفيس بوك، اللواتي أظهرن إلى كل العالم كم هنّ محبوبات عبر أجسادهنّ. كان هناك وقت للنوم وللكحول ولتعاطي تلك الحبتين الملونتين الرائعتين اللتين بإمكانهما أن تجعلاني أنطلق إلى فم العظاءة النجميّة. لقد خانني سميث من جديد كما فعل عندما قمت بملاحقته عبر جزر الأنهار وعبر نهر أونا. لقد غفوت على الأريكة في شقة في جزء من ساراييفو لم أزره من قبل. حلمت أنني أكتب هذا الكتاب وبأني لن أتمكن من إنهائه أبداً.

المنزل على الضفتين

كان لدى المنزل على ضفاف أونا أوقاته الجيّدة والعصيبة. احترق للمرة الأولى عام 1942 خلال قصف الحلفاء للبلدة، ولم يبقَ منه سوى كومة من الرماد. تجمّع أهل المنزل حوله كما لو كان قبراً لقريب عزيز فارق الحياة. في الوقت لاحق، نفخت الريح الرماد بعيداً فوق النهر وبُني منزلٌ جديد من التوفا وطين أونا، ولكن السلالم كانت خشبية، واستخدمت عوارض من خشب البلوط للتسقيف واستخدم القصب كدعائم للجدران. هذا كان المنزل الذي أتذكره، وسوف يواجه القدر نفسه، إلا أنه قد دُمّر بطريقة مختلفة – بيد قذرة خرقاء في العام 1992، كانت تحمل ولاّعة سجائر وتشعل قطعة من الورق، تسقط القطعة بحركة بطيئة على السجّادة المبللة بالنفط، التي بدورها ستجرف المنزل إلى السماء. بهذه الكلمات: "سوف تصعد إلى السماء دخاناً" من قصيدة "شرود الموت"، كتب بول سيلان من دون علمٍ منه مرثيّة لبيت جدتي.

هذه كانت سقطاته الأرضية، لكن العالم الداخلي كان مختلفاً إلى حدٍّ بعيد، وها هو المنزل يتابع وجوده. مازال سكّانه يعيشون داخله، في تلك المساحة الجيّدة التهوية. في الصيف تفوح رائحة القهوة المحمَّصة الرائعة من برميل التحميص على الشرفة التي يشكّلها السقف الذي يميل بحدّة إلى الأسفل نحو الفناء المواجه

للنهر. تمدّ الكرمة فروعها على دعائم الشرفة ويصدر الماء صوت غرغرة من الأنابيب المعدنية، وقبل أن يصب في الحوض الإسمنتي، يصدر خريراً غريباً كمخلوق قد حرر من أغلال ثقيلة في أعماق الأرض الأكثر ظلمة وصعد أخيراً إلى نور النهار. تسقي جدتي - ووجهها مؤطر بحجاب ذي ألوانٍ ناعمة - الزهور في الحديقة، التي نمت من التراب المليء بالطمي والغني الذي يمكنك أن تجده فقط على ضفاف أونا. رائحة بتلاتها مسكرة، وسوف تصنع جدتي منها شراباً حلواً لونه أحمر شاحب وتضعه في مرطبانات بسعة لترين. سوف تستقر البتلات على السطح لمدة من الزمن قبل أن تغوص إلى القاع.

لقد نمت نباتات البابونج البري ولسان الحمل حيث تنتهي الحديقة ويبدأ الفناء. هناك مقعد وطاولة تحت شجرة السفرجل، وعلى بعد ثلاث خطوات فقط يوجد الرصيف المائي الصغير. القوارب هنا ثقيلة وأضلاعها - ألواحٌ خشبية منحنية على شكل حدوة حصان ذات زوايا - رطبة نتيجة بقائها دائماً في الماء. تستخدم القوارب لاستخراج الطمي وصيد الأسماك. كل من يملك قارباً يملك رصيفاً أيضاً، وكل رصيف يسمّى على اسم المالك.

كان بيت جدتي الثاني، الذي أتذكره، يغرق في الضفة مواجهاً النهر لسنوات. كانت أرضية المطبخ مائلة كما لو أن المنزل كان في مسار الانزلاق إلى الماء (نسختنا من برج بيزا المائل إن صح التعبير). لم يرق لجدتي هذا الوضع، وكانت تحلم دائماً بجدار داعم راسخ ويعوّل عليه من الحجارة لإيقاف ما هو مستحيل إيقافه: وحدة النهر والزمن، كما عبّر هيراكليتس مجازيّاً.

على الضفة أسفل المنزل كان هناك شجرة بندق، هزيلة لكنها تبدو رشيقة، وكنت أحياناً أشاهد طائر الرفراف جالساً على أغصانها بريش رقبته ورأسه الأزرق السماوي، ومنقاره الصامت الذي يشير إلى الماء، كما لو أنه كان يصوّب إلى سمكة تسبح بلا مبالاة بالقرب من سطح الماء. في أواخر الخريف، كان طائر الرفراف يجلس هناك على غصن عارٍ لساعات، من دون أن يلتقط شيئاً، حتى يسقط المطر. لقد خرّب صفاء ماء النهر جاعلاً إياه وحشاً ذو لسان مستعصٍ فهمه وجهاز عضلي عريض ومعتم يغرس الخوف والتوجّس. عندما يرمي طائر الرفراف سهامه إلى الماء يصبح وكأنه بومة تطعن الماء بطقطقة ناعمة وتصعد وسمكة في حوذتها، وتطير بها إلى غصن شجرة صفصاف. ستعلق قطرات من الماء على ريشه المزّيت، الأمر الذي سيزيد من بهاء لمعان تلك الألوان اللامعة السماويّة على رقبته وصدره. في الصيف يصبح الرفراف مخفياً عن الأنظار بين أوراق النغت أو الصفصاف أو الحور، التي تقلب وجه أوراقها السفلي الأبيض في هبوب الريح معلنةً قدوم المطر أو عاصفة.

من الصعب وصف المنزل في الشتاء، وهو مكسيّ بالثلج والنوازل الجليدية المعلّقة المنحدرة من حرف السقف. كان الموقد المصنوع من الصفائح المعدنية يسود المنظر، وغالباً ما كانت تتدلى فوقه قطعة عطرة من جذر الراسَن – من خزانة جدتي الصينية – لتجفّ بهدوء. أياً كان من يحب الماء يستمتع أيضاً بالنار. كانت ألسنة النار بالغة الصغر تلسع باب الموقد الصغير الذي كان بمثابة منجنيق فضائي جاهز لكي يقذفنا إلى المناطق المجهولة المعتدلة بدون الثلج الرطب ونهر أونا الثائر. كانت سجادة صلاة جدتي مصدراً للدفء –

صوف خروف معالج بنهايات بيضاء، والتي عليها كانت تصلي خمس مرات في اليوم. كانت الخزانة الصينية تعرض الأطباق الزجاجية والمستندات القديمة التي تحمل ختم مملكة الصرب والكروات والسلوفاك، والمجوهرات الذهبية وزجاجة عَرَق مع أعشاب طبيّة تستخدم لصنع كمّادات. كان هناك أيضاً جارور مقفول الذي أنا وحدي وجدت طريقة لأنظر إلى ما بداخله عندما كانت جدتي تفتحه لتأخذ خاتمها الذهبي ذو حجر العقيق، الذي يُغير ألوانه أمام عيني عندما أدريه باتجاه جهاز الإنارة الذي يخفي مصباحاً في داخله.

في الحقيقة، لم يكن الشتاء قرب النهر ممتعاً، كان المنزل بمثابة تابوت يحتجزنا في داخله حتى قدوم الربيع والصيف. الشيء الوحيد الممتع هو ما كان يقوم به عمي سيتا والمتمثل بخدع إخفاء قطعة نقدية يحملها على كفّ يده أو ابتلاع سلسلة - كان يقوم بسحرٍ تعلّمه خلال فترة خدمته في سلاح البحرية.

كان بيت جدتي عند الضفة، على حدود عالمين، ويميل من تلقاء نفسه نحو نهر أونا، ذلك النهر غير القابل للوصف، سيغرق المنزل فيه يوماً ما. حينها سأتمكن من رؤيته كجزء من مدينة غارقة مليئة بالحوريات والأرواح المائية، وسوف أتعرف إلى حدود وجهي في أعماق المياه.

سيستمر أونا بالجريان بعد أن أنهي قصّتي.

عدت إلى هذا النهر الحقيقي والممزوج بألوانه وقوّته، والشمس كانت للتو تقتفي أثر عروق الصفصاف على وجه الماء الرقيق. أتى صوت بث راديو لمباراة يوم الأحد من وراء نافذة أحد المنازل. الغسيل منشورٌ على الحبال، جاف كما لو أنه بارود، يتراقص مع

الريح الغربية. كل شيء كان ممكناً وقريباً وملموساً. هناك في مكـــان قريب حيث يأخذ النهر منعطفاً وراء محل جـــزارة مهجـــور عنـــد شلالات مليئة بفقاعات الهواء، أرى صبياً في عامه الثالث عشر حاملاً بيده صنارة صيد، ويسير عبر النعناع والأعشاب الطويلة على ضـــفة النهر، قبل أن يختفي.

أولى كلمات الكتاب

لنتخيل أنها تمطر في الخارج، فقط لأن المزاج المائي جيد للكتابة. أفكر بالفطور تنبثق من التربة الرطبة الآن: تنبثق القبعات أولاً، ثم الأجزاء المستقيمة. يمشي رجل في الغابة وتغرق قدماه في الأوراق المبللة. إنه ساحر يستطيع أن يحوّل قضيباً من المعدن إلى شبح من دخان حين ينصهر سطح المعمل الذي أشعل فيه النار على طرف البلدة. (هناك دوماً ساحران اثنان، ساحر أبيض وآخر أسود، يحوّل الساحر الأبيض القضيب المعدني في يد قاتل إلى أفعى لزجة). يمشي الساحر الأسود عبر الغابة، وعلى رأسه قبعة ذات حواف عريضة. وجهه مخفي، وبنطاله مبتلّ حتى مستوى الركبتين. لقد أوقفتُ المطر، ومحيتُ الساحر لأني لا أحب اللون الأسود. سأضع أحصنة البحر فوق الغابة، وها هي الآن تنجرف وتصرخ بأصوات حادة وخافتة بينما تركب على أعمدة من الفقاعات الهوائية. لكن كيف لأحصنة البحر أن تطير فوق غابة قاريّة من أشجار الشرد والزان؟ تعود الفطور إلى الأرض، يستقيل المطر ويعود إلى الغيوم. لكن مطراً مختلفاً ورهيباً يصب في كل جروحي. تكافح مخلوقات وقصص كثيرة لتخرج مني، هاربةً قبل الطوفان الكبير الآتي. عليّ أن أنقذ ما يمكنني انقاذه. الكلمات، التشابيه، الرسومات، المخلوقات، ككارغانو المجنون وعناصر متعددة عليها أن توضع على سطح سفينة متينة.

قمت بفتح ملفٍ بعجلة على الكومبيوتر وبدأت عاصفة ذهنية من الأسماء لأجل الكتاب، جميعهم في قسمين:

رواية طبيعة (حياة مع IOU)

ملاحظات ليلية (الكلاشينكوف وشهبه)

هدوء يجري في أونا (جنّاز بلقاني)

كتاب الطبيعة (مقطوعة مسائية ليوغوسلافيا)

معجم وجيز للكآبة (انهرت إلى ذرّات)

معجم وجيز للحزن (كتاب الضباب)

معجم وجيز لكل شيء (رثاء للنمل والسحالي)

معجم وجيز للعالم الذي اختفى في صفير ضباب المحرّك الدخاني.

معجم وجيز للعالم الذي اختفى في صفير شحرور قوس قزح.

معجم وجيز للعالم المائي (الجنود الأثيريون)

معجم وجيز لأونا (الكتاب الأخضر)

لقد بدأت في مكان ما، وبدت العناوين جيدة كبداية. عندما اخترت اسماً لذلك القارب المتين، ركبت على متن شعبي كله وانطلقت مع التيار نزولاً إلى البحر في مغامرة كتابة عظيمة ومجيدة. وهذه السفينة تُدعى "التدفق الهادئ لنهر أونا"

لست متأكداً ماذا سيحصل مع كل باقي الأسماء أو إذا كنت بالحقيقة قد تمكنت من إدراج بعض منهم في الكتاب، حتى ولو سطحياً. كلّما حاولت أن أهرب من نفسي:

إلى أمان الخضرة،

إلى هدوء الحفرة الخضراء،

إلى ماناوس، في الغابات المطرية البخارية، حيث يعد الصرصار الثواني في ليالي الصيف الرطبة،

دوماً ما يعيدني شيء ما.

أما التلفاز الحكومي تيليدكس فكان منهمكاً بـ:

التنقيب عن المقابر الجماعية، وتقارير من محاكمات مجرمي الحرب، وأخبار من العالم عن براكين ثائرة، وزلازل، وكوارث طيران مدني، وتفشي فيروسات غامضة، وخطر حرب نووية.

كل تلك الأشياء أبعدتني عن نيّتي المتأصلة لأقول إني سئمت من نفسي واكتفيت من الكتابة عن الحرب ونتائجها، وأني أريد الهرب إلى عالم طفولتي المثالي على ضفاف نهر أونا. لكن لا يفترض بهذا الكتاب أن يكون كتاباً كلاسيكياً يتحدث عن البلوغ (أنا أعارض البلوغ) لأن الناس أثقلوا كاهلي، وتعبت من فوضى حياتهم الخالية من المعنى. أردت أن يكون في الكتاب أقل عدد ممكن من الناس. بالطبع لم أوفّق في نيتي هذه في كتابة كتاب هادئ عن الماء والنباتات والحيوانات لأن رغبتي كانت غير صادقة وأدّت، نتيجة للضغط الذي مارسته بيئتي، إلى أن تعتمد سرداً مزيّفاً. في نهاية المطاف سلّمت أمري إلى الرحلة، وقادتني الغريزة، أكثر البوصلات التي يمكن الاعتماد عليها، إلى أرض غير مطروقة. مع كل الشكوك التي يجب عليّ أن أحيى معها، فالأمر الوحيد المتأكد منه هو السبب الذي أكتب من أجله هذا الكتاب.

لا تعمّر الأغراض لزمن طويل. تختفي بدون ترك أي أثر خلفها، أو تنكسر وتسقط متحوّلةً إلى أشلاء وقطع صغيرة وغبار. أردت أن تبقى الأشياء وتستمر. لطالما رغبت أن يكون بحوذتي شيء أو أكثر

يمكنه أن يعبر الزمن معي. احتجت إلى ذلك النوع من رفقاء الدرب الجامدين الذين يكونون دوماً طوع إرادتي. لم أكن ديكتاتورياً، بل كان ذلك مجرد رغبة لامتلاك شيئاً أستطيع الاعتماد عليه دائماً. تخيلت أشياءً مصنوعة من أقسى المعادن، ساعة يدوية من التيتانيوم على سبيل المثال، لا يمكن كسرها كما ستالينغراد. هذه الساعة اليدوية ستعمّر بدون أي خدش. لم يرق لي التفكير باللحظة التي سيعاني منها غرضٌ لي بعض الأعطال الميكانيكية، حينها سيكون مدنّساً بالنسبة إليّ، وأقل قيمة، وسأفقد إيماني بقدراته الشفائية، وسيكون ذلك نهاية زماننا معاً. لكنّا سنكون متلازمين دوماً أنا وتيتان، الذي لن يفارق معصمي مهما حصل. إن مؤشريه المضيئين كانا يدي النور اللتين تشرداني في طريقي حين يعمّ الظلام وحين لا يكون في العالم المادي دلائلٌ مرئية سوى الظلال.

تشير يد تيتان إلى الشلال الصغير
حيث يصعد سيتا إلى السطح وسمكة على رمحه
تشع قطرات المياه على زعنفة سمكة الغريلنغ
تنفجر تباينات الصيف في عيني السمكة

لا بد من وجود شيء ما يستطيع أن يتحمل تضاؤل الزمن، شيء أمتن من حياتي وجسدي. لا يمكن التعويل على الملابس لأنها تتلف بسرعة. إنها تصبح رقيقة كالثلج في وجه هبوب الريح الجنوبية. تصبح رثة تحت يدي المتعرقتين، وتحت المطر والشمس والغسّالات. أهملت ألعابي في سن مبكر. لم يكن هناك جدوى من بناء رابط قوي مع أشياء لم تصنع إلا لكي تستمر لمرحلة واحدة من مراحل

telegram @ktabpdf
مكتبة ٣٦٢

الحياة، وعندما تكبر بالعمر تدرك كم هي جديرة بالشفقة. لماذا عليّ أن أقوم بتجميع أغراض ستولّد شعوراً بالشفقة داخلي؟ الحنين أمرٌ جيد، لكني احتجت لشيء يفوق ذلك: غرض لن يظهر أية إشارة للخوف والحزن - كتاب جيب ألماسي مليء بملاحظات خيمائي تتحدث عن إنقاذ الأرض وتطوّر البشرية - الغرض الأسمى الذي أستطيع أن أوجه أرقّ مشاعري له، وبه سأبني ضريحاً لوحدتي. أن أكون وحيداً مستمتعاً بوحدتي هو قمة الألفة مع العالم الذي يحيط بي. لكن الأغراض والمنقولات والمجوهرات والساعات لا تعمّر كثيراً. إن كل شيء مصنوع من مادة متينة معرّض للدمار أو للاختفاء، فإذاً على ماذا يمكنني الاعتماد؟ قمت عبثاً ببناء جدران من أشياء قوية غير مجدية. عزلت نفسي بين كتب ومعبودات محبوبة أخرى، وتجمّع الغبار عليها ليحذرني من هشاشة المادة. سرعان ما تبني عالماً أو منزلاً أو كوخاً من الأعواد، فإنه محكوم بالفشل، محكوم عليه بالفشل منذ اللحظة التي كان فيها مجرد رسم أولي بالأبيض والأسود في رأسك. لذلك بدأت أؤمن بالكلمات، لأن الكلمات لا يمكن تدميرها. إن محيتها فستعود من جديد، تطوف الكلمات أمام عينيك وليس من المعتاد أن تفر من الجبهة الأمامية. إذا قمت بإضرام النيران فيها، ستحترق بحميّة أكبر في ذاكرتك، وما من ماسحات ذواكر كالكحول والمخدرات يمكنها أن تتخلص من الكلمات. الكلمات تتجاوز التدمير إذا محيتها ستعود مباشرة إلى رأس لسانك من جديد. لذلك بدأت أصف الأشياء التي كانت تهمني كالمهووس:

"كانت الأنياب المعلّقة المستخرجة من خنزير برّي قُتِل في العام نفسه الذي ولدت فيه تتدلى على الطرف الضيق للحائط إلى يمين

الجهة الداخلية للباب الأمامي للشقة، فوق قاطع الضوء. عندما تقف بمحاذاة الغنيمة، فإن باب غرفة المعيشة يقع مباشرة إلى اليمين، والممر المؤدي إلى غرفة نومي يكون بموازاة الغنيمة. إلى يسار غرفة النوم مطبخٌ ضيقٌ بنوافذ مطلة إلى الخارج إلى حدائق ذات مصاطب مليئة بالنباتات الخضراء المورقة. إذا تابعت بشكل مستقيم من الباب الأمامي، فستصل إلى الحمام والمرحاض ذو البلاط الأبيض البارد الصغير. تقع أغراضي في أماكن محددة في غرفة نومي: المعشبة مليئة بالأوراق المضغوطة وكمية كبيرة من الزهور، رسائلي، والنتائج المكتوبة بخط اليد لبطولة العالم لكرة القدم المقامة في إسبانيا عام 1982، ومجلات إباحية، كلها مكدسة في تجاويف طاولة ضخمة لها شكل X وحامل في الوسط. الطاولة موضوعة رأساً على عقب لكي لا تستهلك الكثير من المساحة ولتستند على الحائط على ذراع واحدة مباشرة خلف باب الغرفة الزجاجي. في اللحظة التي أجلس فيها في غرفة الجلوس وأشرع بمشاهدة تلك الوجوه الهوليوودية المبتسمة على الشاشة بأسنانهم البيضاء الناصعة، يغيب عن إدراكي أنهم في الحقيقة أموات منذ زمن طويل. سيتطلب الأمر كتاباً كاملاً لكي أصف غرفة المعيشة. جيش من مئات آلاف الكلمات لن يكفي ليهزم تلك المساحة ويضغطها بين غلافي كتاب. الآن أنت تعرف طريقك في شقتي ويمكنك أن تكون جزءً من أبعادها الثلاثة المعاد تشكيلها".

كنت آمل بأن ذلك الوصف سيجعل أغراضي متينة وغير قابلة للتلف في عالم يحيط بي كغابة مظلمة لا حدود لنهايتها. كل شيء ذهب بغير رجعة، يمكن أن يعاد إحياؤه بواسطة الكلمات، هكذا فكرت. لقد أشدت برفاقي المتوفين، وهكذا وصلت إلى تفاهم مع

ذلك الجزء من فاجعتي. لكن خسارة المشاعر والأشياء الملموسة التي تشكل عالم ما قبل الحرب - غرف المعيشة (كون الألفة) والكتب (آلات الزمن) والصور (حافظات الزمن الكريستالية) - كانت تتجلى كألم مبرح بالنسبة إليّ.

تمنحني الكتابة الفرصة لأصنع لنفسي عكازاً، وعالماً بديلاً. يقولون إن الكتب تعمّر أكثر من البشر، وأنا أتفق مع هذا، لكن دبوس شعر نحاسي يدوم أكثر من أجيال كاملة من البشر. قررت محتاراً أني سأكتب لنفسي كل شيء حلمت به وكل شيء أخبرته للدرويش عندما استيقظت من التنويم المغناطيسي. يمكنني أن استخدم التنويم الذاتي لأجعل ذاكرة تلك الجلسة تعود وعندئذ، في حالة اليقظة، أقوم بتسجيل كل شيء على شريط. ولاحقاً سأضع مخاوفي في كتاب وهكذا أدمج نفسي مع شيء يدوم طويلاً، بدون أدنى فكرة عما سيكون الغرض منه. عندما فعلت ذلك، أدركت كم حادَ طريقي بعيداً عن نيّتي الأولى لإقامة صلات مع ماضيّ، عن الإحساس به بيديّ كما يحتضن أحد وجه شخص محبوب، بلطف ورعشة في اليدين. قمت بتسجيل التغييرات التي عشتها خلال هذه الرحلة بتفاصيل مضنية، غير راغب بإهمال أي شيء، حتى صور الجرائم تلك التي أفضل لو دفنتها في أبعدِ نقطة في درب التبانة. لا، لقد قمت بتسجيلها أيضاً. كل تفصيل صغير رأيته في ذاكرتي أو تخيلته من جديد في ذكريات مستعادة عشوائياً يمكن أن يُحوَّل إلى لون من ألوان لوحة الحياة الجدارية. أوراق الصنوبر الإبرية وبراعم أشجار الصنوبر البيضاء خلف بيت جدتي يمكن أيضاً أن تتخذ لنفسها لوناً. بعد الحرب قطعنا تلك الشجرة، الأمر الذي يتعذر عليّ تفسيره الآن،

متأملين أن نبدأ من جديد من تلك الشجرة المربعة، غافلين عن أنه ما من "شجرة مربعة". وقفنا يائسين بين أنقاض بيوتنا السابقة والدخان يتصاعد منها، في حالة من الصدمة الدائمة والمعتادة على قساوة ما نراه أمام أعيننا. كنا تلك الشظايا من غيرنيكا، مخلوقات حيّة تمشي بين الأنقاض، مكرّسة لتلقائية عملية إزالة الأنقاض وإعادة ترتيب البلدة المنكوبة. هذا كان أفضل ما يمكننا القيام به في ذلك الوضع. (تقلص بيت جدتي إلى كومة من الركام وبرز فقط أنبوب في المكان الذي كان فيه حوض المطبخ، ورشحت المياه منه متدفقة لشهور بعد الحرب).

عندما لمست أغراضاً مقدسة تعود إلى ماضيّ، أصبحت أخيراً كاملاً، وارتبكت مرة أخرى لأجد أن الحرب وانقطاعاتها الزمانية والمكانية لم تكن السبب الوحيد لصدماتي النفسية. بل كانت أيضاً تلك المستشعرات المتناهية الصغر التي انتشرت فوق كل شبر من جسدي، مشكلةً نظامي العصبي. أدركت أني كنت أكتب كتاباً عن الكآبة. إنه درع الكلمات المضيئة – الشيء الأكثر ديمومة بين كل ممتلكاتي.

في مكان ما في الغرب، وُلِد هذا الكتاب لم يكن بحاجة إلى أن يكون وثيقةً كتابية فنيّة، رواية ذات حقائق دامغة – في وسعه أن يكون قراءة خفيفة حول مصاصي الدماء، لأن الأمور في عالمهم تدوم طويلاً، والعوامل الخاصة والعامة ليست عرضة لدمار دوري كما هي عليه هنا. حتى لو تم مسح أحد العوالم الغربية، فإنه من السهل استبداله لأن هناك رسومات تقنية تمكننا من إعادة بنائه. كل شيء هناك مُسجَّل، ومحفوظ في الأراشيف، بينما نحن هنا في بداية المغامرة

العظيمة فقط، مغامرة الملاحظة والتسجيل واستئناف الحياة الطبيعية. لكن علينا دوماً، توخيّاً للحيطة، أن نترك بعض المجال لإمكانية النار والثلج الآتيين من السموات أو من الأرض. يسهل أن نخطأ التوقع في كل شيء في أوقات لا يمكن التوقع بها. لذلك أنا أحلم بكتاب كبير، الذي يمكن أن أدون فيه عن كل أولئك الناس الذين عاشوا تلك الأجواء الحزينة بمخاوفهم وآمالهم، كتاب كبير واحد عن الأحياء الذي سيُستخدم لأغراض طبيّة. في تلك الحال، ستصبح الأحلام والفن أقوى أسلحتنا.

منزل الرعب

خرج مصطفى هوسار إلى ضوء النهار بعد عدة ساعات قضاها في قاعة المركز الثقافي. ترنّح فوق حصى مرآب السيارات أمام المبنى، الأمر الذي أبطأ حركته كما لو أنه يجتاز صحراء رمال بمشقة كبيرة. كان في جلسة تنويم مع ذلك الدرويش الذي يعمل في سيرك رامايانا الهندي الطائر. كان السيرك في الواقع إيطالياً، لكن الفرقة كانت قد استخدمت منوّمين أصليين ومدربيّ أفاعي من الهند. كان ذلك بمثابة وثبة نحو التعدد الثقافي في شركة أوروبية بيضاء - جرعة متأنية من البهارات ملائمة لأوروبا، عاصمة الكراهية والتحيّز في العالم.

كان عَطِشاً، لكنه فعلياً لم يستطع أن يجد ضالته، وأن يعثر على ركن مشاريب ليروي ظمأه بعد ذلك السيل الوعي المتطلب والصاخب ذاك، الذي هدر عبر القاعة خلال جلسته الطويلة مع الدرويش. كان متعباً كممثل ترك خشبة المسرح بعد أداء استمر لساعات طويلة، هكذا مشى مصطفى عبر ساحة الألعاب ذات شكل L المحيطة بالمركز الثقافي. لم يستطع المغادرة فوراً بسبب الحشد، انحصر بين مجموعة من البالغين السعيدين مع أولادهم، والأنوار الوامضة ذات الألوان المختلفة، ونشاز من الصرخات الآتية من لعبة دوامة الخيل، وهناك نماذج من المراكب الفضائية من فيلم (حرب النجوم) تحركها أذرع هيدروليكية ضخمة. رفرفت ظلالها السريعة

كالدخان على وجهه. تذكّر للتو أنه ترك زجاجة جعة تحت كرسيه مع القليل من الجرعات الفاترة في داخلها، لكن ذلك كان بعيداً جداً لكي يعود ويخترق الحشود عبر غابة السيرك تلك. سمع فجأة أصوات فيلة تصدر نهيماً داخل خيمة، وجمهرة من الأطفال بين الحضور وقفوا هناك فاغرين أفواههم يشاهدون الحيوانات التي لم يشاهدوها سابقاً وجهاً لوجه أو حتى لم يعرفوا بوجودها - نمر بنغالي وقرد كابوتشيني - تماماً مثلما كانوا لا يعرفون الموز وشوكولا (ميلكا) لأنهم ولدوا خلال الحرب عندما لم تكن الأطعمة الغريبة تباع في الأسواق.

كان قد فقد كل إحساس بالزمن في القاعة المظلمة لكنه، استناداً إلى السماء الزرقاء الرمادية، خلص إلى أن الليل بدأ يسدل ستاره. تدريجياً كان رأسه يصفو، كما أنه دفع أفكاره جانباً بحركة لطيفة ليدٍ متخيلة. احتاج لشيء شيّق ليرفعه من حيرته وخموله. دون كثير من التردد، دخل منزل الرعب ليعطي لنفسه خوفاً جيّداً، لكي يعاود دمه مساره عبر شرايينه كما عندما سقطت القذيفة على بعد مترين فقط أمامه خلال الحرب. خيّم سلام شبحيّ في الداخل. سمح لقدميه أن تقوداه إلى غرفة المرايا، حيث هاجمته مع كل التفاتة أشكال مشوّهة لعمالقة وشياطين صغار. تابع سيره بشجاعة، كما لو أن حياة آلاف المواطنين العاجزين تعتمد على تقدمه عبر بيت الرعب - كان يعرف معرفة تامة تطلعات أولئك الناس الجالسين بعيداً خلف الخطوط الأمامية. لكنه أراد تحرير نفسه، أن يتوقف عن التفكير وحل المشاكل التي لم يرها الآخرون حتى. أراد أن يوقف فداءه لأجل تلك المعاناة الجماعية، لأنه ولا مع ألف فادي يمكنه شفاء الناس في بلدٍ حيث حددت حربٌ كل شيء وكانت بلا منتصرين. في النفق، ذي

الجدران المبنية من مواد مطاطية، هاجمته قبضات وأيادٍ لا رحمة فيها، أمسكته من عنقه وذراعيه وقدميه. تبقى عشرة أمتار حتى النهاية، حيث يومض باستمرار ضوء ذو لون قريب من الأحمر ويعود مجدداً إلى عمق الظلام. سقط على ركبتيه. شعر كما لو أن أحداً ما قد ضربه على مؤخرة رأسه بمضرب طارحاً إياه في الأرضية المطاطية للنفق، لكنه لم يكن خائفاً. بشكل غير متوقع اختفى المضرب. جلس على مقعد معدنيّ ذي ثقوب تحت ضوء أصفر. أمام أنفه تماماً، على بعد مترين، مر قطار أصفر بسرعة 120 كم في الساعة. رأى السكة الحديدية وفوقها إعلان بوجه امرأة جميلة بشكل يفوق الطبيعة، وعلى الجانب قرب أذن المرأة مكتوب: هيا بوتوكس! فهم ذلك كما لو أنه يعني أن بوتوكس كان إلهاً حياً يمشي بين الناس.

هبت ريح عبر ذلك الفضاء، والتقط رائحة مألوفة لم يستطع تحديدها على الفور. نهض من مقعده وتوجّه إلى الدرج المنار بشكل شحيح. كان هناك مخرج عليه علامة U1 كبيرة *أولشتراسه*. قرأ العلامة وأدرك أن هذا كان مترو برلين. استنشق الهواء المنعش في بوليفار كورفورستندام، حيث كان طبيعياً جداً أن يكون لديك ندبة على وجهك دون الحاجة لإقامة تضحيات لأجل خطاياك عديمة الإحساس والغافلة. كان الخريف في بداياته، وكان مصطفى، المحارب القديم في جيش البوسنة والهرسك والشاعر المُلهَم، يمشي عبر ظلال أشجار الدلب المشذّبة، عالماً أنه، مع كل نفس من هواء برلين ورائحتها الجديدة المذهلة، كان ينسى كل ما كان يجول في باله مرهقاً إياه وجاعلاً قلبه يخفق بقوة، فضلاً عمّا سببه من عدم انتظام ضربات القلب وتسارعها. كان ينسى كل هجمات الذعر التي كانت تلاحقه

telegram @ktabpdf
مكتبة ٣٦٢

عندما كان يحاول أن يمشي عشرين متراً بعيداً عن شقته إلى الدكّان ليشتري شيئاً فائضاً عن الحاجة، فقط لكي يتأكد من كونه قادراً على اتخاذ تلك الخطوات العشرين إلى العالم الخارجي بين الناس الذين كانوا على بعد سنوات ضوئية منه حتى لو اصطدموا به جسداً لجسد. نسي صوت همهمة الكواكب الميّتة في أذنيه، وارتعاش المخلوقات المراوغة التي شجعته على الموت، والطريقة التي تخدّرت بها ذراعاه حتى المرفقين بينما كان يركض على نحو محموم مسابقاً عبر البلدة إلى قسم الطوارئ، وهو يتصبب عرقاً، ودماغه يعمل بشكل سطحي، متخيّلاً أنه كان يحتضر جراء نوبة قلبية لدقيقة، ثم يفكر بعد ذلك أنه كان يعاني من جلطة. لقد نسى الفكرة التالية تماماً وأكمل سيره إلى الأمام ناظراً إلى وجوه أناسٍ يراهم للمرة الأولى في حياته، ولكنه يشعر أنه يعرفهم منذ الأزل. كان على دراية أنه بعد خطوات قليلة سيمر أمام كنيسة القيصر ويليام، التي رآها أول مرة في فيلم فيم فيندرس أجنحة الرغبة، ثم بعد ذلك في لوحة ماتياس كوبل البانورامية، وأخيراً وجهاً لوجه خلال زيارة قصيرة لبرلين.

عندما وصل إلى الساحة حيث تقع الكنيسة البروتستانتية، فكّر كم كان قريباً إلى برجها المُقعد، الذي آذته مدمرات الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية، ورمّمه الألمان فيما بعد. تعجّب من الفتحة الجانبية في بدن الكنيسة، التي كانت تهب عبرها نسمة دافئة. شعر بسعادة غامرة وبرابط عاطفي مع المارّة الغريبين. ثم وقف لوقت طويل متأملاً برج الكنيسة.

أيقظه نهيم الفيلة، ووقف بثبات من جديد على قدميه، غاصت قدماه في الحصى الخشنة ذات الحواف الحادة الخاصة بمرآب المركز

الثقافي. كانت لحظات محنته قد ولّت. راودته رؤية أن كل شيء كان تحت أمر منه – عالم جديد وروائح جديدة، لكن كل شيء كان أبعد من أن يُلمس. عاد إلى جسده. إلى بشرته وندبته المألوفة.

أشعلت رائحة الندى في عشب حديقة البلدة جذوة الحياة فيه. أراد أن يمشي على الأسفلت ذو اللون الأزرق الحديدي الذي اعتادت أن تزحف عليه في الليالي الماطرة بزاقات ذات بيوت لولبية الشكل. انصهر في الحشد. أضاءت عشوائياً مصابيح السيارات الأمامية زوايا خفيّة في تيجان الأشجار. سمع همهمة أصوات كثيرة. في حين كان آخرون صامتين، يفكرون بعمق، وأيديهم متشابكة خلف ظهورهم. مشى الناس بمحاذاة الطريق وعبر ممرات المشاة، ومسارات الحديقة، فوق العشب عبر الظلام ولهيب سجائر يتموج في أيديهم الخفية. أصدروا حفيفاً مسائياً لطيفاً مليئاً بالتفاؤل والأمل، يتميز بليال دافئة مليئة بالنجوم. انصهر في الحشد، مصاباً بحبٍّ مفاجئ لكل أُولئك الناس. متمنياً لو كان في وسعه احتضان كامل الأفق وكل الأجسام السماويّة المتجمّدة.

مكتبة
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

التدفق الهادئ لنهر أونا

فاروق شهيتش

وحده الصراع من أجل البقاء على قيد الحياة قد يبرر كل أنواع الهجمات، وتحديداً حين تكون محتجزاً مطوقاً من قبل ثلاثة جيوش من الأعداء يقاتلون ضدك: الصرب البوسنيون، الصرب من منطقة نين في كرواتيا، والاستقلاليون من أبديك. لا مجال هنا للإنسانية وللنهضة، هذا ما اعتقدناه حينها. لا أذكر أن أحداً ما قد استخدم تسمية «جرائم حرب» والتي سمعتها للمرة الأولى على قناة سي أن أن بخصوص مخيمي اعتقال أومارسكا وكيراتيرم، وبعدها في القصص التي كانت تنتقل عبر الهمس في الأرجاء بعد سقوط سربرنيشا. لم يخبرنا قسم المعلومات والمعنويات في الجيش الحقيقة الكاملة حول سربرنيشا. قام الأخلاقيون كالعادة بقراءة آخر الأخبار الخاضعة للرقابة من مناطق القتال في بوسنة الشرقية. تضمنت التقارير بعض أرقام القتلى، ولكنها لم تكن قريبة حتى من الأرقام الحقيقة التي بلغت ثمانية آلاف رجل قتلوا بعد أن أسروا. وضحت بالتفصيل عدد دبابات العدو وغيرها من المركبات، أسلحة المشاة الخفيفة وكمية الذخيرة التي تم الاستحواذ عليها حين فر مقاتلونا من المناطق المطوقة في سربرنيشا وزيبا واتجهوا نحو المنطقة غير المأهولة قرب توزلا، كان يفترض بذلك أن يكون مواسياً. تم تقديم سقوط سربرنيشا على أنه هزيمة عسكرية قاسية، وليس على أنه جريمة حرب، مع أنه يمكنك أن تشعر بالمرارة في الكلمات وبين الأسطر.

مكتبة ٣٦٢